Bear on of truth
arabic

منار الحق

رسالة

في الادلة القرآنية

على

صحة الديانة المصرانية

«اقتن الحق ولا تبعه»

(ام ٢٣ : ٢٣)

(طبعة ثانية بالمطبعة الجامعة بمصر)

سنة ١٨٩٦

COLUMBIA UNIVERSITY
IN THE CITY OF NEW YORK

W. Arthur Jeffery

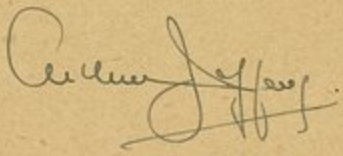

ME 06586

منار الحق

رسالة

في الادلة القرآنية

على

صحة الديانة النصرانية

اِقْتَنِ الْحَقَّ وَلَا تَبِعْهُ

ام ٢٣ : ٢٣

(طبعة ثانية بمصر)

سنة ١٨٩٦

فاتحة

الحمد لله الذي أنزل الكتاب نوراً وهدىً لاولي الالباب . وأقامه بالبينات الراهنات حجة الله مدى الازمنة والاوقات

اما بعد فلما كان للمسلمين في قرآنهم من حسن الشهادة للتوراة والانجيل ودلالة سلامتهما من شائبة التحريف والتبديل والماع يعتبر الى لاهوت عيسى المسيح وكان اكثرهم يرمون الكتاب بالتحريف والتصحيف ولا يعتبرون المسيح الا كأحد الانبياء العظام أو دون بعضهم في العظمة والمقام . كانهم لم يتلوا من القرآن الا شذرات ولم تمر ابصارهم على كبار الآيات المبينة سلامة الكتاب والجاعلة المسيح موضوع العجب العجاب كنت كثيراً ما اتذمر من جراء ذلك في داخلي واطرح تضرعي امام الهي أن يعلن لهم حق ابنه بواسطة كتابهم مفكراً في الوسيلة الحسنى لذلك الى ان اتاح لي الله الاطلاع على أشهر كتبهم الدينية بعد القرآن ككتب السنة (الحديث) وكتاب السيرة النبويةوكتاب احياء علوم الدين للامام الغزالي وتفسير القرآن للامام الفخر الرازي وتفسيره للامام البيضاوي والجلالين فأخذت في دراستها واستخلاص زبدة خلاصتها ثم أخذت اصرف قصارى جهدي بجمع الآيات القرآنية الدالة على صحة الديانة المسيحية مع خلاصة تأويلها في كتب الأئمة المذكورين آنفاً ولما تيسر لي بعونه تعالى نوال المطلوب نسقتها على المنوال المدرج في هذا المؤلف مع تقييد ملاحظات وذيول للابواب وخاتمة فجاء بحوله تعالى كتاباً صغير الحجم كبير الفائدة راجياً من لايرجى سواه ان يفيد به من يقف عليه ويتروّاه .ولما كنت لا اجهل قصر باعي في فن الانشاء والتأليف فلا أعتقد خلوّه من الضعف والركاكة غير أن أملي بحلم القاري النبيل ان يسبل ذيل المعذرة على ما يرى فيه من الوهن والتقصير ويصلح ما يراه فيه من الخطأ والنسيان كما هو من شيم الكرام فان العصمة لله والسلام

الباب الاول

في الآيات المبينة ان محمداً ما أرسل بالآيات المعجزات وانه لم يأت بآية أو أعجوبة

(وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) «سورة الانعام آية ٣٧»

(التفسير) قالوا ان هذا النوع الرابع من شبهات منكري نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وذلك لانهم قالوا لو كان رسولاً من عند الله أفما كان أنزل عليه آية قاهرة ومعجزة باهرة ويروى ان بعض الملحدة طعن فقال لو كان محمد قد أتى بآية معجزة لما صح أن يقول أولئك الكفار لو لا نزل عليه آية ولما قال ان الله قادر على أن ينزل آية والجواب عنه ان القرآن معجزة قاهرة بدليل انه صلى الله عليه وسلم تحداهم فعجزوا عن معارضته وذلك يدل على كونه معجزاً بقي أن يقال فاذا كان الامر كذلك فكيف قالوا لولا نزل عليه آية من ربه فيأتي الامام بالجواب على ذلك ونذكر بعضاً من وجوهه ملخصاً

(الوجه الاول) لعل القوم طعنوا في كون القرآن معجزاً ... فقالوا انه من جنس الكتب والكتاب لا يكون من جنس المعجزات كما في التوراة والزبور والانجيل . ولاجل هذه الشبهة طلبوا المعجزة

(الوجه الثاني) انهم طلبوا معجزات قاهرة من جنس معجزات سائر الانبياء مثل فلق البحر واظلال الجبل واحياء الموتى فاجاب الله عن سؤالهم .. ولكن أكثرهم لايعلمون .. واختلفوا في تفسير هذه الكلمة . زعم السنية ان المراد لما انزل الله القرآن آية باهرة ومعجزة قاهرة كان طلب الزيادة جارياً مجرى التحكم والتعنت الباطل والله سبحانه له الحكم والامر

فان شاء فعل وان شاء لم يفعل أو على وفق المصلحة على قول المعتزلة

(الوجه الثالث) هو انه لما ظهرت المعجزة القاهرة والدلائل الباهرة الكافية لم يبق لهم عذر ولا علة فبعد ذلك لو اجابهم الله تعالى في ذلك الاقتراح فلعلهم يقترحون ثانياً وثالثاً ورابعاً وهكذا الى ما لاغاية له وذلك يفضي الى ان لا يستقر الدليل ولا تتم الحجة فوجب في أول هذا الامر سد هذا الباب والاكتفاء بما سبق من المعجزة القاهرة والدلالة الباهرة

(الوجه الرابع) انه لو اعطاهم ما طلبوا من المعجزات القاهرة فلو لم يؤمنوا عند ظهورها لاستحقوا عذاب الاستئصال فاقتضت رحمة الله صونهم من هذا البلاء فما أعطاهم هذا المطلوب رحمة منه تعالى وان كانوا لا يعلمون (رازي مجلد رابع وجه ٥٣ و ٥٤)

(التفسير) أي مما اقترحوه وان الله قادر على ان ينزل مما اقترحوه غير ان انزالها يستجلب عليهم البلاء وان لهم فيما أنزل مندوحة عن غيره . (بيضاوي مجلد أول وجه ٢٧٧)

(ملاحظة) لا يلام قريش بعدل على اقتراحهم على محمد آية كآيات الانبياء السالفين والقول ان الله قادر على ان ينزل آية ليس بحجة ويمكنهم ان يجيبوا نعم ان الله قادر على انزال الآيات وبيان قدرته على انزالها انه أنزلها على أنبيائه السالفين كموسى وعيسى ولو كان محمد كواحد منهم لساواه بهم من هذا القبيل

والقوم لو رأوا القرآن معجزة لاكتفوا به عن اقتراح آية ولو كان كذلك لما كان الجواب في الآية .. قل ان الله قادر على ان ينزل آية .. بل قل ان القرآن لهم آية والعرب لا يجهلون ان لبعض بلغائهم كامرئ القيس والنابغة وقس الفصاحة من الخطب والقصائد ما اعجزت الآخرين عن الاتيان بمثلها فهل اعتبروها آيات واذا كان القرآن معجزة قاهرة مثل احياء الميت وفلق البحر فما المانع من إصحابه بآية من جنس آيات موسى وعيسى وماذا يضر ذلك بحكمة الله . والقول انه لو اجابهم

الله الى طلبهم فلعلهم يقترحون ثانياً وثالثاً ورابعاً انما هو من باب الظن فلا يؤخذ به ويقال بمقابلة ذلك لعلهم كانوا اكتفوا واقتنعوا لان مطلوبهم آية كانهم قالوا كيف نقبل ادعاء رجل هكذا بالنبوة والرسالة بلا آية تبرهن صحة دعواه كما برهن انبياء اسرائيل لقومهم صحة دعواهم بالآيات التي أوتوها أفلا يأتينا محمد بواحدة منها لنؤمن به . والقول ان هذا الطلب من العرب كان جارياً مجرى التحكم والتعنت الباطل لا يرى من الانصاف بشيء ومحمد جاءهم بدين يختلف عن دين بني اسرائيل ودين النصارى ودين آبائهم فما عدم قبولهم اياه بلا آيات قاهرة كآيات الانبياء المتقدمين الا دليل حذقهم ونباهتهم وخلوص نواياهم ومسئلة استحقاق عذاب الاستئصال لغير المؤمنين بالآيات ندع النظر فيها لمحل آخر اولى به من هذا

وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ « سورة الاعراف آية ٢٠٢ »

(التفسير) خلاصة التفسير ان العرب اقترحوا على محمد آية من ربه تثبت ارساليته منه تعالى فامر ان يجيب بكلمة .. قل انما اتبع ما يوحى اليّ من ربي .. الى آخر الآية لان عدم اتيانه بآية معجزة كما اقترحوا عليه لا يقدح في الفرض لان ظهور القرآن على وفق دعواه معجزة بالغة قاهرة فاذا ظهرت هذه المعجزة الواحدة كانت كافية في تصحيح النبوة فكان طلب الزيادة من باب التعنت (رازي مجلد ٤ وجه ٤٩٩ و ٥٠٠)

(ملاحظة) اذا كان العرب اقترحوا على محمد آية تثبت ارساليته من الله فلاريب ان ذلك كان منهم عن اخلاص ليكونوا على يقين بانه رسول من الله وهذا يظهر انهم ليس فقط ما اعتبروا القرآن آية معجزة بل رأوا احتياجه الى آية تثبت انزاله من عند الله فباعتبار ذلك لا يقع على

القوم شيء من التعنت ولا حظ انهم هناك قالوا في غياب محمد .. لولا نزل عليه آية من ربه .. وهنا طلبوا منه مواجهة عمل آية بقولهم اجتبيتها فكأنهم غب ان تحدث بعضهم مع بعض في أمر دعوى محمدوقالوا لو انزل الله عليه آية كآيات أنبياء بني اسرائيل لكنا نقبل دعواه بفرح ولكننا بدون ذلك لا نقدر ان نصدقه وقالوا هلم نطلب منه ذلك فأتوا وسألوه آية قائلين لولا اجتبيتها أي لو عملتها لكنا نؤمن بك كنبي الله ورسوله الينا فما كان جوابه لهم الا قل انما اتبع ما يوحي اليّ من ربي فهل ذلك بجواب مقنع لأولئك السائلين اياه آية برهانا على ما يدعي انه وحي الله اليه . كلا

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ « سورة الرعد آية ٨ »

(التفسير) خلاصته ان الرسول عليه السلام منذر لقومه مبين لهم ولكل قوم من قبله هاد ومنذر وداع وانه تعالى سوّى بين الكل في اظهار المعجزة الا انه لكل قوم طريق مخصوص لاجله استحق التخصيص بتلك المعجزة المخصوصة فلما كان الغالب في زمان موسى عليه السلام هو السحر جعل معجزته ما كان من جنس تلك ولما كان الغالب في أيام عيسى عليه السلام الطب جعل معجزته ما كان من جنس تلك الطريقة وهو احياء الموتى وابراء الأكمه والابرص ولما كان الغالب في أيام الرسول صلى الله عليه وسلم الفصاحة والبلاغة جعل معجزته ما كان لائقاً بذلك الزمان وهو فصاحة القرآن فلما كان العرب لم يؤمنوا بهذه المعجزة مع كونها أليق بطباعهم فبأن لا يؤمنوا عند اظهار سائر المعجزات اولى فهذا الذي قرره القاضي وهو الوجه الصحيح الذي يبقى الكلام معه منتظماً وكلة انما أنت منذر المعنى ليس لك الا الانذار أما الهداية فمن الله تعالى (رازي مجلد ٥ وجه ٢٧٠ و ٢٧١)

وتفسيرها من البيضاوي . هم يقولون ذلك لعدم اعتدادهم بالآيات المنزلة عليه واقتراحاً لنحو ما أوتي موسى وعيسى عليهما السلام " انما أنت منذر .. مرسل للانذار كغيرك من الرسل وما عليك الا الاتيان بما تصح به نبوتك من جنس المعجزات لا بما يقترح عليك " ولكل قوم هاد .. يهديهم الى الحق ويدعوهم الى الصواب ... على انه تعالى قادر على انزال ماقترحوه وانما لم ينزل لعلمه بان اقتراحهم للعناد دون الاسترشاد (بيضاوي مجلد أول وجه ٦١٦)

(ملاحظة) انك ترى بين الآية وتأويلها بونا عظيما فانه ليس في الآية الماع الى كون القرآن معجزة قط انما قال أنت منذر ولكل قوم هاد أي ليس لك الاّ الانذار كما ترى في تفسير الرازي وأما القول بان الله سوّى بين الكل في اظهار المعجزة الى آخر القول فهو لقول باطل من وجهين (الاول) ان من آيات موسى ما لا يقرب الى طريقة السحر كضربة أبكار المصريين واغراق جيشهم في البحر وفجر الماء من صخر وكذا من آيات المسيح ما لا يقرب البتة الى طريقة الطب كانزال مائدة من السماء وخلقه طيراً من طين حسب نص القرآن واشباعه من بعض الارغفة آلافاً ومشيه على الماء حسب نص الانجيل ولقد توالى على موسى وعيسى أنبياء وحواريون كيشوع وايليا واليشع ورسل المسيح صنعوا آيات عديدة كآيات موسى وعيسى (الثاني) لم تكن الفصاحة والبلاغة خاصة بالعرب دون غيرهم من الامم بل كل أمة فصيحة بليغة في لغتها الخاصة ولا سيما اليهود واليونان فانهما كانتاغاية في الفصاحة والبلاغة كما هو ظاهر من مؤلفاتهم وخطبهم وأشعارهم ولما لم يكن العرب في زمن محمد خالين من صناعتي السحر والطب وكانوا على جانب عظيم من النباهة وسرعة الخاطر كانت حالتهم وطباعهم تستدعي صنع معجزات من نبيّ قام بينهم اثباتاً لدعواه كما كانت حالة المصريين والاسرائيليين تستدعي ذلك واذا كانت دياتنا موسى وعيسى أثبتنا بالآيات والعجائب فبالاولى لمن

قام وادعى النبوة وجاء بدين يخالفهما بدعوى انه ناسخ لما قبله من الاديان ان يثبت دعواه ودينه بآيات تفوق آيات ذينك النبيين والا فأي لوم وحرج على من لايصدقه ويقبل ما جاء به

وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَنْ كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ «بني اسرائيل آية ٦١ »

(التفسير) ملخصه ان كفار قريش قالوا لولا يأتينا بآية كما أرسل الاولون وعن سعيد بن جبير ان القوم قالوا لمحمد انك تزعم انه كان قبلك أنبياء فمنهم من سخرت لهم الريح ومنهم من كان يحيي الموتى فأتنا بشيء من هذه المعجزات فاجاب الله تعالى عن هذه الشبهة بقوله .. وما منعنا ان نرسل بالآيات الآ ان كذب بهاالاولون .. المعنى انه تعالى لو أظهر تلك المعجزات القاهرة ثم لم يؤمنوا بها بل بقوا مصرين على كفرهم فحينئذ يصيرون مستحقين عذاب الاستئصال لكن عذاب الاستئصال على هذه الامة غير جائز لان الله تعالى علم ان فيهم من سيؤمن أو يؤمن من أولادهم فلهذا السبب ما أجابهم الله تعالى الى مطلوبهم (رازي مجلد ٥ وجه ٦٠٧)

وتفسير الآية من الامام البيضاوي هو وما صرفنا عن ارسال الآيات التي اقترحتها قريش .. الآ ان كذب بها الاولون .. الآ تكذيب الاولين الذين هم من أمثالهم في الطبع كعاد وثمود وانها لوأرسلت لكذبوها تكذيب أولئك واستوجبوا الاستئصال على ما قضت به سنتنا وقد قضينا ان لا نستأصلهم لان فيهم من يؤمن أو يلد من يؤمن (بيضاوي مجلد ١ وجه ٧٠٢)

(ملاحظة) ان القول بعذاب الاستئصال لمن كذب آيات المرسلين هو مدحوض من التوراة فان المصريين كذبوا بآيات الله التي صنعها عن يد موسى ولم يسمعوا له فلم يستأصلهم الله بل أهلك بعضاً منهم وابقى

الآخرين. وبنو اسرائيل في أدوار كثيرة كذبوا انبياء الله وقتلوا منهم كثيراً ولم يستوجبوا بحكم الله عذاب الاستئصال بل هم لا يزالون أمة قائمة على رغم كل ما أجري لابادتهم . أما عاد وثمود فأمرهما من الحكايات غير الموثوق بها وهب انهما بادا كطسم وجديس فلعل ذلك من توغلهم في الشر ومزاولتهم الغزوات والحروب وانشاء الامم وابادتها سنة الله في خلقه ينشي ويفني لحكمة منه وغاية لا تدرك . ولا يعلم عن أمة قام فيها نبيّ من الله الاّ وصدقه بعضها لان آيات الرسالة كآية موسى وعيسى لا تذهب سدًى في الجميع واذا كان محمد وهو لم يأت بآية قط صدقه وآمن به سريعاً عدد عظيم من قريش ان لم نقل أكثرهم ولم يطل الحال حتى قبل دعواه أهل يثرب فكيف لو أجرى الله على يده آيات كآيات الانبياء المذكورين . واذا كان القوم صدقوه بلا آيات فاي محل للقول انه لم يرسل بالآيات لئلا يكذب بها القوم فيستأصلوا لانهم اذا كانوا قبلوا الدعوى بدون آيات فكيف يكذبونها بالآيات . فلو ان محمداً بعد افراغ جهده بانذار القوم لم يصدقه منهم احد بل أصر جميعهم على عدم تصديق دعواه الاّ أن يأتيهم بآيات قاهرة كآيات موسى وعيسى ربما كان محل صغير للقول انهم لا يؤمنون ولا بالآيات ولكن المعلوم ان زوج محمد خديجة اعتبرته نبياً من الله ورسولاً في بدء ادعائه ذلك ولم يلبث ان آمن به علي ابن عمه وابو بكر وعثمان وعمر وهلمّ جرّا ولم تعبر سنون قليلة حتى آمن به جميع أهل مكة . وأكثر الذين جعلوا الآيات شرطاً للايمان به واقترحوها عليه آمنوا به بدونها والله العليم عالم ان القوم سيؤمن أكثرهم بمحمد بدون آية وعليه فلا خوف على القوم من عدم الايمان بالآيات . وهل لله سبحانه ان يقول قولاً يحجف بعلمه ما سيكون . تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً

وَقَالُوا لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ « سورة العنكبوت آية ٤٩ »

(التفسير) ملخصه ان القوم قالوا لمحمد انك تقول انه أنزل اليك كتاب كما أنزل الى موسى وعيسى وليس كذلك لان موسى أوتي تسع آيات علم بها كون الكتاب من عند الله وانت ما أوتيت شيئاً منها ثم ان الله تعالى أرشد نبيه الى اجوبة هذه الشبهة منها قوله انما الآيات عند الله وليس من شرط الرسالة الآية المعجزة ... فانا الساعة رسول وأما الآية فالله ان أراد ينزلها وان لم يرد لاينزلها ثم قوله وانما انا نذير مبين معناه ان الآية عند الله ينزلها أو لاينزلها لاتتعلق بي ما انا الا نذير وليس لي عليه حكم بشيء (رازي مجلد ٦ وجه ٦٨١)

وتفسير البيضاوي لهذه الآية " وقالوا لولا أنزل عليه آية من ربه " مثل ناقة صالح وعصا موسى ومائدة عيسى " قل انما الآيات عند الله " ينزلها كما يشأ لست املكها فاتيكم بما تقترحونه وانما أنا نذير مبين ليس من شأني الا الانذار وابانته (بيضاوي مجلد ٢ وجه ٢٣٦) وكذا تفسير الجلالين سوى انه يقول وفي قراءة آيات كناقة صالح وعصا موسى ومائدة عيسى وانما أنا نذير مبين منذر بالنار اهل المعصية (جزء ثاني وجه ١٠٣)

(ملاحظة) لك من هذه الآية وغيرها من الأئمة المذكورين ملاحظتان (الاولى) حذق القوم بطلبهم من محمد آيات تبرهن صحة دعواه بانزال كتاب اليه من الله كما برهن موسى وعيسى بالآيات على انزال الكتاب اليهما ومن لا يرى عدالة هذا الطلب . والقول انما الآيات عند الله ليس هو جواباً لذلك السؤال وانظر ان العرب لم يروا في القرآن ما يبرهن انه من عند الله والا لاستغنوا بذلك عن شهادة الآيات (الثانية) ان محمداً ليس هو رجل آيات انما هو فقط منذر بالنار أهل المعاصي . حسناً . وهذا يستطيعه غير الانبياء والمرسلين من ذوي المحبة والغيرة . والقول وليس من شرط الرسالة الآية المعجزة لامحل له في هذا الصدد نعم ليس الآية شرط الرسالة في كل مرسل لان الله ارسل بعضاً بدون آية معجزة كأرميا ويونان لكنه ما أرسل مشترعاً بدون آيات قاهرة ومحمد

ماجاء مشترعاً فقط بل ناسخاً للشرائع المثبتة بتلك الآيات فالمقام الذي ادعاه يوجب عليه بالاحرى الاتيان بآيات اكثر واعظم من آيات أولئك المشترعين

أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ « سورة العنكبوت آية ٥٠ »

(التفسير) يعني ان كان انزال الآيات شرطاً فلا يشترط الا انزال آية وقد أنزل وهو القرآن فانه معجزة ظاهرة باقية وقوله أولم يكفهم انا أنزلنا عليك الكتاب وهذا الآن القرآن معجزة أتمّ من كل معجزة تقدمتها (رازي مجلد ٦ وجه ٦٨١) والبيضاوي يفسر الآية ان القرآن آية غنية عما اقترحوه تدوم تلاوته عليهم متحدين به فلا يزال معهم آية ثابتة لا تضمحل (بيضاوي مجلد ٢ وجه ٢٣٦) وفي الجلالين أي القرآن فهو آية مستمرّة لا انقضاء لها بخلاف ما ذكر من الآيات (جزء ثاني وجه ١٠٣)

(ملاحظة) ليس في آية أو لم يكفهم ... بيان كون القرآن معجزة وان القوم فضلا عن انهم لم يعتبروه معجزة لم يعتقدوا انزاله من عند الله اذ قالوا ان هذا الا افك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون (انظر سورة الفرقان آية ٥) وكثيرون من المسلمين يدحضون القول باعجازه وهاك ما ورد في كتاب المواقف من قول القائلين باعجازه والقادحين به

أما القائلون باعجاز القرآن فقد قالوا من وجوه اعجازه كونه الى الدرجة العالية من البلاغة التي لم يعهد مثلها في تراكيب العرب

وهل رتب البلاغة متناهية فيه قال اختلفوا فيه ثم قال (صاحب الكتاب) والحق ان الموجود منها متناهية لانها واقعة في تلك الالفاظ الشريفة الدالة على المعاني الصحيحة ولا شك ان الموجود من تلك الالفاظ في اللغات متناه دون الممكن من مراتبها فانه غير متناه وقيل اعجاز القرآن اخباره عن الغيب نحو .. وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين .. اخبر عن غلبة الروم

على الفرس فيما بين الثلاث الى التسع وقد وقع كما أخبر به

وقيل وجه اعجازه عدم اختلافه وتناقضه مع ما فيه من الطول والامتداد وتمسكوا في ذلك بقوله تعالى « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » وقيل وجه اعجازه بالصرفة على معنى ان العرب كانت قادرة على كلام مثل القرآن قبل البعثة لكن الله صرفهم عن معارضته . واختلف في كيفية الصرف زعمت المعتزلة صرفهم الله عنها مع قدرتهم عليها وذلك بان صرف دواعيهم اليها مع كونهم مجبولين عليها . فهذا الصرف خارقاً للعادة فيكون معجزاً

وقال المرتضي من الشيعة بل صرفهم بأن سلبهم العلوم التي يحتاج اليها في المعارضة فلم يبق لهم قدرة عليها « انتهى ملخصاً »

ملخص شبه القادحين في اعجازه

قالوا (اولا) وجه الاعجاز أن يكون بيناً لمن يستدل به عليه بحيث لايلحقه ريب واختلافكم فيه اي في وجه الاعجاز دليل على خفائه فكيف يستدل به على اعجازه

(ثانياً) ما ذكرتم من الوجوه لا يصلح للاعجاز من ذلك البلاغة اما البلاغة فلوجوه

(الوجه الاول) اذا نظرنا الى أبلغ خطبة للخطباء أو أبلغ قصيدة للشعراء وقطعنا النظر عن الوزن والنظم المخصوص ثم قسناها على أقصر سورة من القرآن وأنتم تزعمون التحدي بها ويتناولها قوله تعالى .. فأتوا بسورة من مثله .. لم نجد الفرق بينهما في البلاغة بيناً بل ربما حكم للخطبة أو القصيدة التي قيس عليها ولا بد في المعجز الذي يستدل به على صدق المدعي من ظهور التفاوت بينه وبين مايقاس هو عليه الى حد تنتفي معه الريبة حتى يجزم بصدقه جزماً باتاً

(الوجه الثاني) ان الصحابة اختلفوا في بعض القرآن حتى قال ابن مسعود بان الفاتحة والمعوذتين ليست من القرآن مع انها أشهر سوره . ولو

كانت بلاغتها بلغت حد الاعجاز لتميزت عن غير القرآن فلم يختلفوا في كونها منه

(الوجه الثالث) انهم كانوا عند جمع القرآن اذا أتى اليهم شخص بآية وآيتين ولم يكن مشهوراً عندهم بالعدالة لايضعونها في المصحف الا ببينة او يمين والارجح مامرّ وهو انه لو كانت بلاغتها واصلة الى حد الاعجاز لعرفوها بذلك ولم يحتاجوا في وضعها في المصحف الى عدالة ولا الى بينة أو يمين

(الوجه الرابع) لكل صناعة مراتب في الكمال بعضها فوق بعض وليس لها حد معين تقف عنده ولا تجاوزه ولا بد في كل زمان من فائق قد فاق ابناءه بان وصل الى مرتبة من تلك المراتب لم يصل اليها غيره في عصره وان امكن يفوقه شخص آخر في عصر آخر فلعل محمداً كان افصح اهل عصره فاتى بكلام عجز عن مثله اهل زمانه ولو كان ذلك معجزاً لكان ما أتى به كل من فاق اقرانه في صناعة من الصناعات في عصر من الاعصار معجزاً وهو ضروي البطلان

واما عدم الاختلاف والتناقض فيه مع طوله ففي هذه القضية وجوه نقتصر على وجهين منها (الاول) ان فيه تناقضاً من ذلك ان فيه كلاماً ملتبساً اذ قال " ما فرطنا في الكتاب من شيء .. وقال ولا رطب ولا يابس الا في كتاب بين ولا شك ان القرآن لا يشتمل على اكثر العلوم من المسائل الاصولية والطبيعية والرياضية والطبية ولا على الحوادث اليومية فلا يكون هذا مطابقاً للواقع

ومن ذلك ايضاً ان فيه اختلافاً بالصحة وعدمها اذ فيه اللحن نحو ان هذان لساحران . قال عثمان حين عرض عليه المصحف ان فيه لحناً وستقيمه العرب بالسنتهم ومن ذلك التكرار اللفظي فان فيه تكراراً لفظياً بلا فائدة كما في سورة الرحمان . وفيه تكرار معنوي كقصة موسى وعيسى . كذلك فيه ايضاح الواضح نحو تلك عشرة كاملة واي خلل اعظم من الكلام غير المفيد. انه نفى عنه الاختلاف حيث قال " ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه

اختلافاً كثيراً .. في معرض الاحتجاج بعدم الاختلاف فيه على كونه من عند الله ثم انا نجد فيه اختلافاً كثيراً فلا يكون هذا الاحتجاج صحيحاً وانما قلنا بكثرة الاختلاف فيه لانه (اي الاختلاف) اما في اللفظ او في المعنى . والاول اما بتبديل اللفظ او التركيب او الزيادة او النقصان والكل موجود فيه اما بتبديل اللفظ فمثل كالصوف المنفوش بدل كالعهن ومثل فأمضوا الي ذكر الله بدل فاسعوا ومثل فكانت كالحجارة بدل فهي كالحجارة . . . واما تبديل التركيب فنحو ضربت عليهم المسكنة والذلة بدل الذلة والمسكنة ونحو جاءت سكرة الحق بالموت بدل الموت بالحق واما الزيادة والنقصان فنحو النبي اولى من المؤمنين من انفسهم وازواجه امهاتهم وهو اب لهم ففي هذه القراءة زيادةوفي المشهورة نقصان وكذا الحال في قوله .. له تسعة وتسعون نعجة انثى .. واما الاختلاف في المعنى فنحو ربنا باعد بين اسفارنا بصيغة الامر ونداء الرب وربنا باعد بين اسفارنا بصيغة الماضي ورفع الرب والاول دعاء والثاني خبر ونحو هل يستطيع ربّك بالغيبة وضم الباء وهل يستطيع ربّك بالخطاب وفتح الباء والاول استخبار عن حال الرب والثاني عن حال عيسى

(الوجه الثاني) انه يوجد عدم الاختلاف في كثير من الخطب والقصائد الطوال بحيث لو تتبعها ابلغ البلغاء لم يعثر فيها على سقطة فضلاً عن التناقض والاختلاف ويظهر ذلك كل الظهور في اقصر سورة تحدى بها كما هو الظاهر من قوله .. فأتوا بسورة من مثله .. فان هذا المقدار من نظمهم ونثرهم خال من الاختلاف بلا شبهة فلا يكون عدم الاختلاف موجباً للاعجاز

وأما القول بالصرفة فعليه يكون المعجز هو الصرف لا القرآن الا ترى انه لو قال انا اقوم وانتم لا تقدرون على القيام وكان كذلك لم يكن قيامه معجزاً بل عجزهم عن القيام فهذه المقالة خارقة لاجماع المسلمين السابقين على ان القرآن معجزة لرسول الله دالة على صدقه

خلاصة الجواب عن الشبهة القادحة

قولهم اختلافكم في اعجازه دليل الخفاء فكيف يستدل به على اعجازه قلنا الاختلاف والخفاء وان وقع في آحاد الوجوه فلا اختلاف بيننا ولا خفاء في انه اي مجموع القرآن بما فيه من البلاغة والنظم الغريب والاخبار عن الغيب ... واشتماله على غير ذلك مما ذكر في وجه الاعجاز معجزة وانما وقع الخلاف في وجهه لاختلاف الانظار ومبلغ اصحابها من العلم

والجواب عن الثانية ان الآحاد لا يعارض القاطع يريد ان اختلاف الصحابة في بعض سور القرآن مروي بالآحاد المفيدة للظن ومجموع القرآن منقول بالتواتر المفيد لليقين الذي يضمحل الظن في مقابلته فتلك الآحاد مما لا يلتفت اليه ثم ان سلمنا اختلافهم مما ذكر قلنا انهم لم يختلفوا في نزوله على محمد صلى الله عليه وسلم ولا في بلوغه في البلاغة حد الاعجاز بل في مجرد كونه من القرآن وذلك لا يضر فيما نحن بصدده

والجواب عن الثالثة ان اختلافهم عند جمع القرآن فيما يأتي به الواحد من آية او آيتين انما هو في موضعه في القرآن وفي التقديم والتأخير فيما بينه وبين الآيات الاخر لافي كونه من القرآن وذلك لان القرآن كله منقول بالتواتر عنه عليه السلام فما اتى به الواحد كان متيقناً كونه من القرآن وطلب البينة والتحليف انما كان لاجل الترتيب فلا اشكال واما قوله ان هذان لساحران .. فقيل غلط من الكاتب ولم يقرا به فان ابا عمرو قرأ ان هذين وزعم ان كاتب المصحف قد غلط في كتابته بالالف وقول عثمان ان فيه لحناً اي في الكتابة في خط المصحف واما قوله تلك عشرة كاملة فدفع لتوهم غير المقصود ولو بوجه بعيد جداً واما الاختلاف اللفظي اوالمعنوي الواقع في المنقول المتواتر لايكون قادحاً في اعجازه بل هو ايضاً من صفات كماله وان المراد بالاختلاف المعنوي عن القرآن هو الاختلاف في البلاغة فهو مع طوله خال من هذا الاختلاف ثم ان قياس اقصر سورة على اطول خطبة او قصيدة جور وعدول عن سواء السبيل لان التحدي بها انما يكون بما هو على مقدارها المشتمل على مثل بلاغتها لا بما هو اضعافها المشتملة

على مثلها كما لا يخفى على ذي مسكة من الانصاف وايضاً فيكفينا في اثبات النبوة كون القرآن بجملته او بسورهِ الطوال معجزاً وجه ٥٥٨ الى ٥٦٣

ملاحظة

(في ماتقدم من دفع تلك الشبه)

لايخفى على النبيه المتحري كون هذا الدفع لتلك الشبه غير واف بالغرض على ان ذلك كل ماهو في حيز الامكان. لاجرم ان المدافعين اجهدوا النفس بايجاد مخرج لكل من تلك الشبه فلم يجدوا الا ما ذكر وما كلف الله نفساً الا وسعها . فنقول اذا على فرض كان الاتفاق واقعاً من حيث نهاية القرآن في البلاغة لم يقع ان اعجازه في منتهى بلاغته كما قد رايت في مامر . الاترى انهم اختلفوا في دليل اعجازه فقيل اعجازه كونه في الدرجة العالية في البلاغة وقيل اعجازه اخباره عن الغيب وقيل هو عدم اختلافه وقيل هو الصرفة عن معارضته على انهم اختلفوا في هل رتب البلاغة متناهية فيه فالاختلاف واقع في كلا الامرين . ثم انه لايرى في قياس المشتبه ابلغ خطبة اوقصيدة على اقصر سورة جوراً وعدولاً عن سواء السبيل والقرآن يقول .. فأتوا بسورة من مثله .. بدون التفات الى المعادلة او التفاوت من حيث الطول والقصر فعليه اذا امكن القوم اتيان خطبةاو قصيدة تساوي في البلاغة اقصر سورة يكونوا اتوا بمثله ومن المعلوم ان الطويل من الخطبة او القصيدة اوفر عرضة للضعف والسقط من القصير فيقال على سبيل التعجب هذه القصيدة مع طولها خالية من الركاكة والخطأ ومن المحال ان يقال هكذا عن البيتين اوالثلاثة الخالية من ذلك . وكأن مراد صاحب الشبه بقياسه هذا هو ان الكلام القصير ايسر جعله في غاية البلاغة من الطويل وان اقصر سورة في القرآن ايسر جعلها في اسمى نقطة من البلاغة من اطول واحدة . يوجد من خطب العرب وقصائدهم مايعارضها او يفوقها في ذلك فأين اذاً اعجازه على ان صاحب الشبهة لم يقل اذا نظرنا الى اطول خطبة اوقصيدة بل الى ابلغ فغايته البلاغة لا الطول فكيف استجاز المجاوب مغالطته

اما قوله في جوابه عن الشبهة الثانية الذي هو ثم ان سلمنا باختلافهم فيما ذكر (اي في امر الفاتحة والمعوذتين) قلنا انهم لم يختلفوا في نزوله (القرآن) على محمد . فهذا ليس بحجة ولا دفع لانهم اذا كانوا اختلفوا في سورة الفاتحة والمعوذتين بان قال بعضهم ليست من القرآن يضعف القول انهم لم يختلفوا في نزول القرآن على محمد اذا اختلفوا في نزول بعضه عليه. فكان الاحرى بصاحب الدفع ان يقول ان سلمنا باختلافهم في نزول بعض القرآن على محمد لم يختلفوا في نزول باقي القرآن عليه عوض قوله لم يختلفوا في نزوله على محمد فعليه بقيت الشبه في اعجاز القرآن غير مدفوعة ولا مدحوضة

اما جوابه عن الشبهة الثالثة فهو الاوفر ضعفاً ووهناً لانه على فرض ان الاختلاف الواقع عند جمع القرآن فيما يأتي به الواحد من الآية والآيتين انما هو من حيث موضعها في القرآن لا في كونها منه قلنا اذا كان موضع تلك الآية في القرآن مجهولاً عند الصحابة لا يبعد ان يكون مجهولاً عندهم كونها منه أيضاً لانه اذا كانت معلومة انها منه بالنقل المتواتر فلماذا لا يكون معلوماً بالنقل المتواتر موضعها فيه كما في امر الكتاب (التوراة الانجيل) المعلوم بالتواتر انزال كامل اجزائه وترتيب فصوله وآياته . على ان العارفين يؤكدون ان هذا الاختلاف الباعث على طلب البينة من الآتي بتلك الآية والآيتين وتحليفه انما كان على كونها من القرآن وللاثبات بوجه شرعي كونها منه . لان القوم على ما هو مؤكد كانوا يأتون بتلك الآيات مكتوبة على حجارة او عظام او سعوف النخل ويعرضونها على جامعي القرآن من الصحابة مدعين انها انزلت على النبي فيطالبونهم بالبينة على صحة دعواهم واذا عدموا البينة حلفوهم اليمين فلو كان جامعو القرآن عارفين من ذي قبل بتلك الآيات انها من القرآن لما كان داعٍ لابرازها على تلك المواد بل كان الواحد من العرب يقول اني اذكر او اؤكد ان آية كذا هي في موضع كذا من القرآن وقد سمعت الرسول يقرأها في سورة كذا منه . ومثل هذه الجملة على ظني لا وجود لها في قصة جمع القرآن

وعدم وجودها مع اعتبار الملاحظات الحقة اعلاه تبين بطلان الدعوى ان البينة واليمين كانا لاثبات موضع تلك الآيات في القرآن لا لاثبات كونها منه

اما قوله بخصوص اللحن في جملة ان هذان لساحران قيل غلط من الكاتب وان قول عثمان ان في القرآن لحناً يعني في الكتابة في خط المصحف هو لقول عديم الاعتبار عند اهل البصائر ولفظة قيل لا يعوّل عليها لانه لو كان مراد عثمان باللحن الغلط من كاتب القرآن لبادر الى اصلاحه ولما ابقى اللحن على حاله في كتاب يعتبره كتاب الله فقوله ان في القرآن لحناً وستقيمه العرب بالسنتهم وتركه ذلك اللحن على ماهو دليل على ان عثمان اعتبر ذلك اللحن اصلياً في القرآن (,, ان في القرآن لحناً ,,) فعليه تبقى الشبهة في مركزها غير متزعزعة وقوله واما قوله تلك عشرة كاملة فدفع لتوهم غير المقصود ولو بوجه بعيد جداً هو اقرار بان الشبهة في محلها وليس من سبيل الى دفعها لان ايضاح الواضح سخافة في الكلام فلا داعي له ولا لزوم لان من يتوهم العشرة تسعة الا قاصر العقل والابله ولان المدافع لا يجهل ذلك قال ولو بوجه بعيد جداً وربما يقول بعض القارئين كان الاكيس للمدافع لو لم يتعرض البتة لهذه الشبهة ولكن رأى انه عارٌ عليه كمناظر ومدافع عن القرآن الاعراض عن شبهة من الشبه القادحة في اعجازه ولما لم ير بداً من دفع لها لجأ الى قول ماقال وهو على ماارى على غير ثقة به

ثم مايغرب جداً جعلهُ الاختلاف اللفظي والمعنوي في القرآن غير قادح في اعجازه بل هو ايضا من صفات كماله لوقوعه في المنقول المتواتر فلمَ وما دليل ذاك فاذا كان مراده بذلك ان وجود هذا الاختلاف في القرآن دليل عدم التغيير فيه من حين جمعه عثمان فنصادق له على ذلك. على ان هذا ليس بشيء من الدليل على كماله فاذا كان هذا الاختلاف فيه قبل ان جمع عثمان نسخة لاجل تنقيحها وحين جمعه لم يمسه باصلاح ما بل ابقاه على علاتهِ كما في امر ان هذان لساحران فيكون هذا الاختلاف فيه اصلياً وهو ينكد على دعوى كماله وعلى القول ,, لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً ,,

واغرب من ذلك انه يعتبر الاختلاف المنفي عن القرآن هو الاختلاف في البلاغة كأنه لما لم يستطع نكران مافيه من الاختلاف اللفظي والمعنوي خلافا لمنطوق الآية المذكورة لجأ الى القول ان الاختلاف فيه من حيث البلاغة . حسن. فنقول اذا كان على فرض كما يزعم ان الاختلاف في القرآن من حيث البلاغة لا من حيث اللفظ والمعنى وعلى فرض ان عدم اختلافه في البلاغة دليل اعجازه يكون معجزاً من حيث البلاغة لا من حيث الالفاظ والمعاني وهو من عند الله من حيث البلاغة ومن عند غير الله من حيث الالفاظ والمعاني . فهل ذلك اعتقاد المسلمين على ان عدم وجود اختلاف في بلاغة كتاب طويلا كان او قصيراً ليس هو دليلا على ان ذلك الكتاب من عند الله بل على حصول منشئه على موهبة البلاغة من الله . من المعلوم ان جودة العقل وقوة النباهة وسرعة الخاطر وحدة الذاكرة هي مواهب من عند الله فاذا رأينا انساناً على غاية الفصاحة ومنتهى البلاغة نقول سبحان الوهاب المعطي وقط لا يخطر لنا ان كلماته او كتاباته البليغة الخالية من الركاكة والخطأ انها منزلة من الله وان قائلها نبي الله . وعليه اذا كان القرآن على فرض غاية في البلاغة وخالياً من الاختلاف فيها نقول ما ذلك الا لما خصّ قائله من موهبة الفصاحة التي هي من مواهب الله لخلقه فلا شيء في ذلك من دليل النبوة لان موهبة الفصاحة قد يستعملها ذووها في الكلام المنزل وغير المنزل ويمكن خلوهما من الاختلاف في البلاغة كما في كثير من خطب واشعار اليونان والعرب

وهنا لدى المسلم اشكال خطير لانه ان قال ان القرآن معجز من حيث اللفظ والمعنى قلنا له وجود الاختلاف فيه ابطل دعوى اعجازه من هذا القبيل وان قال بل اعجازه في بلاغته قلنا قد ظهر بطلان ذلك فيما مر من الكلام . هذا اذا كان القرآن كما يدعون في غاية الفصاحة ومنتهى البلاغة على ان هذه الدعوى قد سقطت فيما تقدم من شبه القادحين في اعجازه وعدا عن ذلك فان كثيرين من العارفين بأحكام اللغة ينكرون عليه ذلك

بأدلة وبراهين لا تدحض

تذييل

لقد اتضح من الآيات الموردة في هذا الباب مع تأويلها ان محمداً ما أتى بآية معجزة وان عدم ارساله بالآيات المعجزات على طراز الرسل المتقدمين لم يكن الا اشفاقاً على العرب من عذاب الاستئصال اذا لم يؤمنوا بعد رؤيتهم الرسول يعمل تلك الآيات فينتج من ذلك عدم مؤاخذة القوم بعدم تصديقهم دعوى محمد بالرسالة بدون آية تبرهن صحة دعواه لان المؤاخذة على موجب الآية واقعة بعدم تصديق القوم الدعوى المبرهنة بالآية المعجزة اذاً لا مؤاخذة لانهم لم يروا معجزة . واذا قلت ان القرآن معجزة بالغة قاهرة مثل فلق البحر واحياء الميت قلنا اذا كان القرآن على قولك معجزة قاهرة بمثابة آيات موسى وعيسى وجب مؤاخذة القوم الذين سمعوه ولم يؤمنوا به مواخذةً توجب استئصالهم لانه اذا وجب استئصال الاقوام الاولين لعدم ايمانهم برسل الله بعد رؤيتهم لآيات تعمل منهم وكان القرآن آية بمثابة تلك أو اتمّ منها (راجع تفسير الرازي وجه ١٢) وجب بالاولى بمقتضى هذا القانون والسنة استئصال القوم الذين لم يصدقوا دعوى محمد بالنبوّة والرسالة ويؤمنوا لانهم سمعوا القرآن الذي هو معجزة قاهرة كتلك الآيات لتلك الاقوام ولما لم يستأصلوا دل عدم استئصالهم على ان القرآن ليس بآية معجزة كما يدعون وفقاً للقول « وما منعنا ان نرسل بالآيات الا ان كذب بها الاولون » فعلى الوجه الايجابي ان القرآن آية معجزة تبطل الاية « وما منعنا ... » وعلى الوجه السلبي ان القرآن ليس بآية تسقط عن القوم المؤاخذة . لعدم تصديقهم محمداً وهذا منكر فانّى للمسلم العاقل الخروج من هذه الدائرة والمناص من هذا القفص على انه قد اتضح لدينا جزئياً مما تقدم في هذا الباب ان القرآن بكل الوجوه ليس بآية معجزة كما يدعون

واما ما روي في الحديث ان محمداً عمل عدة آيات مثل نبع الماء من بين اصابعه وتكثير الطعام القليل لاشباع جم غفير فهذه الروايات بضاعة

كاسدة عند ذوي النبالة من المسلمين لانها تنافي القرآن كل المنافاة الذي يصرح بعدم ارسال محمد بالايات وكون القرآن غنياً عنها ولو جرت على يدي محمد آية واحدة لذكرت في القرآن ولما قال القرآن ما قال من الآيات العديدة المبينة ان محمداً ما ارسل بالآيات وانه لم يعمل آية واحدة اجابة لسائليه ولما كان الحديث لا يقاس بالقرآن لان المعول على القرآن عند وقوع الخلاف بينهما وكل لبيب يرى انه لم يكن حسبان القرآن معجزة غنية عما سواها من المعجزات الا لان لا معجزة عندهم لمحمد سواه

الباب الثاني

في الآيات المبينة ان محمداً لم يرسل لاجبار الناس واكراههم على الايمان

لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالعُرْوَةِ الوُثْقَى لاَ انْفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ « سورة البقرة آية ٢٥٧ »

(التفسير) ملخص التفسير قال ان في تأويل هذه الآية وجوهاً (أحدها) وهو قول أبي مسلم والقفال انه تعالى ما بنى أمر الايمان على الاجبار والقسر وانما بناه على التمكن والاختيار وان القسر والاجبار مما لا يجوز في دار الدنيا . ونظيرها قوله تعالى " فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر " وقوله في سورة أخرى " ولو شاء ربك لآمن من في الارض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين " اذاً الاكراه والالجاء الى الايمان غير جائز لانه ينافي التكليف (الثاني) هو ان الاكراه ان يقول المسلم للكافر ان آمنت والاّ قتلتك فقال تعالى " لا اكراه في الدين " (الثالث) لا نقول لمن دخل في الدين بعد الحرب انه دخل مكرهاً لانه اذا رضي بعد الحرب وصح اسلامه فليس بمكره ومعناه ان لا ينسبوهم الى الاكراه (الرازي مجلد ١ وجه ٤٧٢ و ٤٧٣)

وتفسير الآية في البيضاوي اذاً الاكراه في الحقيقة الزام الغير فعلاً لا يرى فيه خير يحمله عليه ... وقيل اخبار بمعنى النهي أي لا تكرهوا في الدين وهو اما عام (أي على الجاهلية وأهل الكتاب) منسوخ بقوله جاهد الكفار والمنافقين أو خاص بأهل الكتاب (اليهود والنصارى) لما روي ان انصارياً كان له ابنان تنصرا قبل البعث (أي قبل بعث محمد نبياً) فألزمهما ابوهما وقال والله لا ادعكما حتى تسلما فاختصما الى رسول الله فقال الانصاري يا رسول الله أيدخل بعض النار وأنا أنظر اليه فنزلت الآية فخلاهما (بيضاوي مجلد ١ وجه ١٧٦)

وفي الجلالين قد ظهر بالآيات البينات ان الايمان رشد والكفر غي نزلت فيمن كان له من الانصار اولاد أراد ان يكرههم على الاسلام (جزء أول وجه ٤٦)

(ملاحظة) قد رأينا في تفسير الآية من الامامين الرازي والبيضاوي ثلاثة أمور جديرة بالاعتبار

(الامر الاول) ان الله تعالى ما بنى أمر الايمان على الاجبار والقسر (الامر الثاني) ان الاكراه والالجاء الى الايمان غير جائز لانه ينافي التكليف (الامر الثالث) قيل ان الآية اخبار بمعنى النهي أي لا تكرهوا فأقول اذا كان تعالى ما بنى أمر الايمان على الاجبار والقسر يكون الاجبار والقسر على الايمان منافياً لما بنى الله . واذا كان الاكراه والالجاء الى الايمان غير جائز فمن يفعله يجوز ما ليس بجائز واذا كانت الآية اخباراً بمعنى النهي عن الاكراه فيكون ذلك الاكراه اما فعل قبل النهي أو كان في النية والعزم فعله عند سنوح الفرصة فنهى عنه بها وعليه فان الآية .. لا اكراه في الدين .. نهي مطلق عن الاكراه وهو عام لا خاص كما يستدل أيضاً من الامرين الاول والثاني أعلاه وأما قول الرازي لا تقولوا لمن دخل في الدين بعد الحرب انه دخل مكرهاً لانه اذا رضي بعد الحرب وصح اسلامه فليس بمكره ... فهو غير مقبول من وجه انه يندر أن يسلم شخص بعد

الحرب طائعاً مختاراً بل الغالب ان الداخلين في دين الاسلام عقيب انغلابهم في الحرب وتضعضع أحوالهم من غزوات المسلمين وفتكهم هم مكرهون أو مضطرون الى ذلك فكيف جازله اطلاق عدم الاكراه على مثلهم . أنسى ان الجهاد في غزو الجاهلية وأهل الكتاب انما كان على موجب القرآن ليكون الدين كله لله كما يقول .. وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله.. (سورة البقرة آية ١٨٩)

لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ « سورة البقرة آية ٢٧٤ »

(التفسير) في تأويل هذه الآية آراء ومسائل خلاصتها ان بعض أصحاب محمد أبوا التصدق على سائليهم من أقاربهم المشركين فاستشاروه في ذلك فنزلت الآية فأمر محمد بالتصدق عليهم ومنها ان محمداً ما كان يتصدق على المشركين حتى نزلت الآية فتصدق عليهم والمعنى على جميع الروايات ليس عليك هدى من خالفك حتى تمنعهم الصدقة لاجل أن يدخلوا في الدين فتصدق عليهم لوجه الله ولا توقف ذلك على اسلامهم وقال .. أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين .. فأعلمه الله تعالى انه بعثه بشيراً ونذيراً وداعياً الى الله باذنه وسراجاً منيراً ومبيناً للدلائل فأما كونهم مهتدين فليس ذلك منك ولا بك فسواء اهتدوا أو لم يهتدوا فلا تقطع معونتك وبرّك وصدقتك عنهم. وفيه وجه آخر ليس عليك ان تلجأهم الى الاهتداء على ايمانهم بواسطة ان توقف صدقتك عنهم فان مثل هذا الايمان لا ينتفعون به بل الايمان المطلوب منهم هو الايمان على سبيل التطوع والاختيار (رازي مجلد ١ وجه ٥٢٢ و ٥٢٣)

وتفسير البيضاوي لهذه الآية هو لا يجب عليك ان تجعل الناس

مهتدين وانما عليك الارشاد والحث على الخير والنهي عن القبائح (مجلد ١ وجه ١٨٤)

وتأويلها في الجلالين هو قال ان هذه الآية نزلت بسبب منع محمد صلى الله عليه وسلم التصدق على المشركين ليسلموا فالمراد منها ليس عليك ادخال الناس في الاسلام انما عليك البلاغ وهداية الناس على الله وثواب ما تنفقون من المال صدقة عائد الى أنفسكم وما تنفقون الاّ ابتغاء وجه الله أي ثوابه لا غيره من أغراض الدنيا خبر بمعنى النهي وما تنفقون من خيرٍ تجازون عليه (جزء أول وجه ٤٩ و ٥٠)

(ملاحظة) ما أحلى وأجمل مفاد هذه الآية حسب تفسير الائمة المذكورين فياذا البصيرة والاخلاص قف وانظر اذا كان لا يجب منع التصدق على المشرك لاجل أن يسلم أو لئلا يضحى ذلك الجاء له الى الدين بسبب عوزه فكم بالحرى لا يجب غزوه ومحاربته لهذه الغاية لانه اذا كان حرمان المشرك من الصدقة قد يكون له الجاء الى الدين فكم بالحرى القهر في الحرب والسبي والنهب وخوف القتل بعد الاستسلام (كما في أمر يهود قريظة الذين بعد ان استسلموا الى محمد أمر بهم فضربت رقابهم) يكون أكبر سبب لالجاء المقهور المسبي الخائف الى الدخول في دين الغالب وعليه كيف لاق بالامام الرازي القول لا تقولوا لمن دخل في الدين بعدالحرب انه دخل مكرهاً أما كان الاجدر به الحكم بعدم جواز غزو القبائل ومحاربتها لاجل أن يدخلوا في دين الاسلام وفقاً لهذه الآية وما تقدمها وخصوصاً ان مفاد الآية هو انما عليك البلاغ وعلى الله الهداية . وانها خبر بمعنى النهي أفما يكون محمد منهياً عن اتخاذ أية وسيلة كانت لالجاء الناس الى الدين لان الايمان الحاصل من قبيل الالجاء لا ينفع بل الايمان النافع هو ما كان على سبيل التطوع والاختيار واذا كانت هذه حقيقة ربانية فانى التوفيق بينها وبين القول " وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله "

وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَإِنْ تَوَلَّوا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ « آل عمران مدنية آية ١٩ »

(التفسير) أن ليس للنبي الاّ ابلاغ الادلة واظهار الحجة فاذا بلغ ما جاء بهِ فقد أدى ما عليهِ وليس عليهِ قبولهم والله بصير بالعباد يفيد الوعد والوعيد « رازي مجلد ١ وجه ٦٣٢ »

وتفسير البيضاوي لها هو ان أسلموا فقد نفعوا أنفسهم بأن أخرجوها من الضلال وان تولوا فانما عليك البلاغ أي فلا يضروك اذ ما عليك الاّ ان تبلغ وقد بلغت « مجلد أول وجه ١٩٨ »

والجلالين قل لليهود والنصارى ومشركي العرب أأسلتم أي أسلموا فان أسلموا فقد اهتدوا من الضلال وان تولوا عن الاسلام فانما عليك التبليغ للرسالة والله بصير بالعباد فيجازيهم بأعمالهم « جزء أول وجه ٥٦ »

(ملاحظة) قد أجلت هذه الآية عن انه ليس لمحمد الا تبليغ الناس الرسالة التي اتى بها بالدليل والحجة فهذه مع الجزء الآخر من الآية الذي هو والله بصير بالعباد اي هو يجازيهم على اعمالهم تفيد افادة قطعية انه ليس لمحمد اتخاذ الحرب بتة والتضييق على الناس كوسيلة لادخالهم في دينه او مقاصتهم على ابائهم الاسلام وفقاً لما جاء في آية أخرى " عليك البلاغ وعلينا الحساب "

فاذا كان محمد أدى ما عليه اذ ما عليه الاّ أن يبلغ وقد بلغ فلم يبقَ عليه شيء آخر كانسان عليه دين الف غرش فاذا أدى الالف غرش لا يبقى عليه شيء من الدين واذا كان الله حسب قوله ما أرسله الاّ بشيراً نذيراً وما عليه الاّ تأدية ذلك للناس فاذا عمل ذلك ماذا يبقى عليه . لا شيء . فلمَ لم يقف محمد على هذا الحد

وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ « الانعام آية ٦٦ »

(التفسير) قل لست عليكم بوكيل أي لست عليكم محافظاً حتى أجازيكم على تكذيبكم واعراضكم عن قبول الدلائل انما أنا منذر والله هو المجازي لكم باعمالكم . قال ابن عباس والمفسرون نسخت هذه الآية بآية القتال والامام ينكر ذلك قائلاً ان هذا بعيد مفسراً كلمة لكل نباء مستقر بانه يجوز أن يكون المراد من ذلك عذاب الآخرة ويجوز أن يكون المراد منه استيلاء المسلمين على الكفار بالحرب والقتال والقهر في الدنيا (رازي مجلد رابع وجه ٩٢)

(ملاحظة) وهذه لك آية رابعة تبين ان محمداً ليس بوكيل على مكذبيه حتى يجازيهم على تكذيبهم اياه وهو يبين بجلاء ما عليه وما لله من جهتهم أي هو منذر والله مجازي المكذبين بآياته وأما دعوى ابن عباس وغيره من المفسرين بان هذه الآية نسخت بآية القتال وان الامام ينكر ذلك فنرى ان الفريقين مصيبان كل منهما من جهة أما اصابة الفريق الاول فان آيات القتال عزلت آيات السلم هذه وأخذت مكانها فلم يبقَ لها من نفوذ البتة أي لم يعد يعمل الاّ بآيات القتال . ففعلاً آيات القتال أبطلت نفوذ آيات السلم فاذا قالوا نسختها أو أبطلت فعلها لا فرق واصابة الفريق الثاني في انكار هذا النسخ هو لما يرى من رسوخ آيات السلم ومتانتها غير القابلة النقض والهدم لان محمداً ما أرسل الاّ للتبشير والانذار والبلاغ ولو أرسل لغير ذلك كالحرب والقتال لما كانت الآيات على هذا المنوال وان الآيات هذه اخبار بمعنى النهي عن الاكراه والاجبار فكيف يبين وظيفة محمد كمبشر ونذير وينهاه عن وسائل الاكراه والالجاء الى الدين مبيناً عدم صلاحية ذلك كما قد رأيت فيما مرّ ثم يعدل الى القول بصلاحيته والامر به وذلك لعمرك لا يجدر بالمخلوق العاقل فكم بالحرى بالقدوس

الكامل تعالى الله وجل عن مثل ذلك

قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ « الانعام آية ١٠٤ »

(التفسير) ندع رقم تفسير قد جاءكم بصائر من ربكم ونذكر ملخص تفسير باقي الآية قال من أبصر الحق وآمن فلنفسه أبصر واياها نفع ومن عمي عنه فعلى نفسه عمي واياها ضر بالعمى " وما أنا عليكم بحفيظ " أحفظ أعمالكم وأجازيكم عليها انما أنا منذر والله هو الحفيظ عليكم ثم يقول الغرض بهذه البصائر ان من ينتفع بها اختياراً استحق بها الثواب لا ان يحمل عليها أن يلجأ اليها لان ذلك يبطل هذا الغرض . فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها قال وفيه ابطال قول المجبرة في المخلوق قال المفسرون ان معناه لا آخذكم بالايمان أخذ الحفيظ عليكم أو الوكيل قالوا وانما هذا كان قبل الامر بالقتال فلما أمر بالقتال صار حفيظاً عليهم . ومنهم من يقول آية القتال ناسخة لهذه الآية وهذا بعيد فكان هؤلاء المفسرون مشغوفين بتكثير النسخ من غير حاجة اليه والحق ما تقرره أصحاب اصول الفقه ان الاصل عدم النسخ فوجب السعي في تقليله بقدر الامكان (رازي مجلد ٤ وجه ١٧٦)

(ملاحظة) وهذه لك آية خامسة تبين عدم صلاحية الالجاء الى الدين فلنا من تفسير هذه الآية ثلاثة أمور ذات شأن

(الاول) ان ما على محمد حفظ أعمال المشركين ومجازاتهم عليها

(الثاني) ان الالجاء الى الدين يبطل منه غرض الثواب

(الثالث) تخويل الله الانسان مطلق الحرية في أمر الدين والعبادة بحيث يستحق منه العقاب ان عصى والثواب ان أطاع واما ان ذلك منسوخ بآيات القتال فهو لزعم باطل من وجه ان الاكراه الى الدين غير جائز في

الشرع لمنافاته التكليف وكونه يبطل الغرض من الدين الذي هو الثواب ولذلك قال لا اكراه في الدين غير ان الحال (واحسرتاه) عكس ذلك من وجه ان آيات القتال أبطلت العمل بآيات السلم والاكراه في الدين قام مقام النهي الصريح عنه والقائل ما أنا عليكم بحفيظ أضحى عليهم حفيظاً وعمله بمجازاة الناس ذهب بقوله هذا أدراج الرياح . وهنا نقول اذا كان محمد لجأ الى وسائل الاكراه والالجاء الى الدين فهو بذلك يبطل غرض الدين من خصوص المكره اليه أي يعدمه الثواب واذا كان محمد كما يزعمون أرسل رحمة للعالمين فكيف يكون كذلك وهو يعدم الناس ثواب الله الذي هو غرض الدين باجبارهم والجائهم الى الدخول فيه . فما سبيلك أيها المسلم الى التوفيق بين الرأيين والجمع بين الضدين . وانا لنثني على الامام بقوله عن دعوى هذا النسخ . وهذا بعيد . كأنه رأى في هذه الآيات مايراه كل بصير وهو استحالة نسخها لما انها أخبار بمعنى النهي عن اتخاذ وسائل الاكراه والالجاء غير النافع والمبطل غرض الدين والمنافي لحرية الضمير الممنوحة من لدنه تعالى للانسان . غير انه لم يبين لنا ما هو بعيد ومامراده بقوله الحق ان الاصل عدم النسخ فهل مراده عدم النسخ في هذا الامر فان كان هذا مراده فأين يذهب بآيات القتال والاكراه وكيف يوفق بين النسخ وعدمه فهذا حقاً بعيد البعيد

وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ « الانعام آية ١٠٧ »

(التفسير) ندع رقم تأويل القول " ولو شاء الله ما أشركوا " ونأتي بملخص تأويل باقي الآية قال واعلم انه تعالى لما بين ان لا قدرة لاحد (سواه) على ازالة الكفر عنهم ختم الكلام بما يكمل معه تبصير الرسول عليه السلام وذلك انه تعالى بين له قدر ما جعل اليه فذكر انه

تعالى ما جعله عليهم حفيظاً ولا وكيلاً على سبيل المنع لهم وانما فوّض البلاغ بالامر والنهي في العلم والعمل وفي البيان بذكر الدلائل أوالتنبيه عليها فان انقادوا للقبول فنفعه عائد اليهم والاّ فضرره عائد عليهم (رازي مجلد ٤ وجه ١٧٨ و ١٧٩)

وتفسيرها في البيضاوي هو وما جعلناك عليهم رقيباً وما أنت عليهم بوكيل تقوم بامورهم ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله أي لا تذكروا آلهتهم التي يعبدونها بما فيها من القبائح (بيضاوي مجلد ١ وجه ٣٩٦)

(ملاحظة) وهذه آية سادسة تبين لك القدر الذي جعل لمحمد من لدن الله وهو البلاغ والانذار ولزيادة البيان ودفعاً للتوهم انه أعطي أن يجازي الذين لا يقبلون بلاغه وانذاره قال وما أنت عليهم بوكيل والتفسير ما جعله عليهم حفيظاً ولا وكيلاً على سبيل المنع لهم . فحاصل ما رأينا فيما تقدم ان محمداً قد نهي نهياً مطلقاً راسخاً عن ايذاء المشركين بداعي الجائهم الى الدخول في الدين بثلاثة أمور وهي (١) عدم اكراههم على الاسلام بالسلاح أو غيره (٢) عدم الامتناع عن الاحسان اليهم (٣) عدم سبهم فما بقي له غير البلاغ والانذار بالحب واللطف والحلم قبلوا أو أبوا

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ « يونس آية ٩٩ و ١٠٠ »

(التفسير) قال المراد ولو شاء ربك لآمن من في الارض كلهم جميعاً على رأي الجبائي والقاضي وغيرهما مشيئة الالجاء أي لو شاء الله أن يلجئهم الى الايمان لقدر عليهم ولصح ذلك منه ولكنه ما فعل ذلك لان الايمان

الصادر من العبد على سبيل الالجاء لا ينفعه ولا يفيده فائدة ،، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ،، والمعنى ان لا قدرة لك على التصرف في أحد والمقصود منه بيان ان القدرة القاهرة والمشيئة النافذة ليست الاّ للحق سبحانه وتعالى ،، وما كان لنفس أن تؤمن الاّ باذن الله تعالى ،، قال القاضي المراد ان الايمان لا يصدر عنه الاّ بعلم الله وتكليفه أو باقداره عليه (رازي وجه ٤٢ و ٤٣ مجلد ٤)

وتفسير البيضاوي لهذه الآية هو أفأنت تكره الناس بما لم يشاء الله منهم ... على ان خلاف المشيئة مستحيل فلا يمكنه تحصيله بالاكراه عليه ،، وما كان لنفس أن تؤمن الا باذن الله ،، الاّ بارادته واطلاقه وتوفيقه فلا تجهد نفسك في هداها فانه الى الله (بيضاوي مجلد ١ وجه ٥٥١)

(ملاحظة) لا جرم ان هذه الآية كالآية الاولى في هذا الباب نهي عن الاكراه بألطف أسلوب وهي كانت اما لان محمداً كان قد ابتدأ باتخاذ وسائل الاكراه او انه كان نوى على اجراءه متى مكنته الاحوال وهي تبين تقصير الاكراه عن ابلاغ الناس شأو الايمان لما ان ذلك عطية الله وخاص به . فاذا كان الاكراه في الدين ممنوعاً من لدن الرحمن لعدم نفعه وفائدته فكيف وجب الاكراه

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ

« يونس مكية آية ١٠٨ »

(التفسير) خلاصة تأويل هذه الآية انه تعالى بين انه اكمل الشريعة وأزاغ العلة وقطع المعذرة فمن اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها وما انا عليكم بوكيل فلا يجب عليّ من السعي في ايصالكم الى الثواب العظيم وفي تخليصكم من العذاب الاليم ازيد مما فعلت قال ابن عباس

هذه الآية منسوخة بآية القتال (رازي مجلد ٥ وجه ٢٩)

(ملاحظة) لك في هذه الآية وتأويلها أمران

(الاول) انه تعالى ماقصد بارسال محمد اكثر من انزال الشريعة وابلاغها الناس

(الثاني) انه ليس من الواجب على محمد من جهة الناس اكثر من البلاغ والانذار فعليه اذا كان محمد باشر القتال واتخذ وسائل القهر والاكراه فهو انما عمل مالم يكن في قصد الله بارساله وغير الواجب عليه واذا كان لايجب على محمد أكثر من البلاغ والانذار والنصح كيف وجب عليه الغزو والغارات والقتل والنهب والسبي واذا كان ذلك جائزاً وواجباً فلم القول لا اكراه في الدين آفأنت تكره الناس حتى يؤمنوا فكيف لا اكراه في الدين وفي الدين اكراه لعمرك ذلك من اعظم التضاد والخلاف غير القابل الجمع والائتلاف وما احلى ماقال ابن عباس ان هذه الآية منسوخة بآية القتال فيا ابن عباس أحقاً لم ترَ عدم قابلية الآية للنسخ أو لم تر ان القول لا اكراه في الدين هو نفي مطلق للاكراه والقول أفأنت تكره الناس حتى يؤمنوا الى آخر الآية بيان جلي لعدم نفع الاكراه وانه تعالى لايريده وكيف قال لمحمد وما جعلناك عليهم حفيظاً وما أنت عليهم بوكيل وهذا ليس فقط قولك يا ابن عباس بل هو قول المسلمين اجمع من حين شرع محمدكم بالغزو والقتال وليس من مسلم يقول بثبوت هذه الآية المكينة ويبقى في قلبه محل لآيات القتال ولا اعلم كيف علماء الاسلام وهم يفهمون هذه الآيات ويأولونها هذا التأويل الحسن يقبلون آيات القتال ويرون وجوبها وصلاحيتها واذا كانوا هكذا يعتقدون بان كلا نوعي الآيات من عند الله يقعون لابد بارتباك لايرون الى الخروج منه من سبيل بل يبقون يعرجون بين هذا وذاك الى ما شاء الله

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ

عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ « شورى مكية آية ٤ »

(التفسير) الذين اتخذوا من دونه أولياء اي جعلوا له شركاء وانداداً الله حفيظ اي رقيب على أحوالهم وأعمالهم لايفوته منها شيء وهو محاسبهم عليها ولا رقيب عليهم الا هو وحده وما انت يامحمد بمفوض اليك أمرهم ولا قسرهم على الايمان انما أنت منذر (رازي مجلده وجه ٣٨٥ و٣٨٩)

وَاللهُ جَعَلَ لَكُم مِمَّا خَلَقَ ظِلَالاً وَجَعَلَ لَكُم مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُم سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُم كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُم لَعَلَّكُم تُسْلِمُونَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ الْمُبِينُ يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ « النحل مكية آية ٨٣ و ٨٤ و ٨٥ »

(التفسير) نقتصر على تأويل " فان تولوا فانما عليك البلاغ المبين " قال أي ان تولوا يامحمد واعرضوا وآثروا لذات الدنيا ومتابعة الاباء والمعاداة في الكفر فعلى انفسهم جنوا ذلك وليس عليك الا مافعلت من التبليغ التام (رازي مجلد ٥ وجه ٥٠٤)

وتفسير البيضاوي لهذه الآية فان تولوا أو أعرضوا ولم يقبلوا منك فانما عليك البلاغ المبين فلا يضرك فانما عليك البلاغ وقد بلغت وهذا من اقامة السبب مقام المسبب (مجلد أول وجه ٦٧٧)

(ملاحظة) وهذه أيضاً ثلاث آيات تبين ان محمداً ما أرسل لقسر الناس واكراههم على الايمان ومؤدى الامر سواءً اهتدى المشركون بواسطة سمع الكتاب أو ضلوا ما أنت عليهم بوكيل أي لست مأموراً بان تحملهم على الايمان على سبيل القهر والثانية لارقيب على المشركين الا الله وحده وان محمداً غير مفوض اليه منه تعالى امرهم ولاقسرهم على الايمان

والثالثة ان أعرض القوم عن قبول بلاغه وانذاره ليس عليه الاّ البلاغ فواعجباً كيف ان علماء الاسلام يعرضون عن الاخذ بمفاد هذه الآيات الصريحة ويستجيزون مخالفتها بما يزعمون نزوله من آيات القتال فيا محمد اذا كان لا رقيب على المشركين الاّ الله وحده فكيف صرتَ عليهم رقيباً واذا كنت ما أنت عليهم بوكيل حتى تكرههم على قبول الدين فكيف صرت عليهم وكيلاً حتى تغزوهم وتهرق دماءهم وتسبي ذراريهم واذا كان ربك ما فوض اليك أمرهم بل انما أمرك فقط بابلاغهم وانذارهم وان هذا عليك فقط قبلوا أم امتنعوا فلمَ لم تقف على هذا الحد حتى ان تولوا تدعهم وشأنهم وربك بصير بهم

وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ « الرعد مدنية آية ٤٠ »

(التفسير) ملخصه قال اعلم ان المعنى واما نرينك بعض الذي نعدهم من العذاب أن نتوفينك قبل ذلك والمعنى سواء أريناك ذلك أوتوفيناك قبل ظهوره فالواجب عليك تبليغ أحكام الله تعالى واداء أمانته ورسالته وعلينا الحساب والبلاغ اسم أقيم مقام التبليغ كالسراع والاداء

(ملاحظة) الامر واضح من هذه الآية انه ليس على محمد سوى ابلاغ الناس رسالة ربه وعلى الله محاسبتهم ان تولوا أي اعرضوا عن قبولها مصرين على كفرهم كما رأيت فيما تقدم من الآيات غير ان هذه الآية كفصل الخطاب في بيانها ما على محمد وما على الله ,, فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب ،، كأنه تعالى قسم أمر العباد بينه وبين محمد بان جعل على محمد ابلاغهم حقه تعالى وعليه محاسبتهم ومجازاتهم فاذا كان الامر هكذا فهل يجوز لمحمد أن يدين المعرضين عن ابلاغه متخطياً الحد الموضوع له من ربه

وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى

اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً « الاحزاب آية ٤٧ »

(التفسير) ملخصه قال ولا تطع الكافرين اشارة الى الانذار يعني انه خالفهم وردّ عليهم وعلى هذا فقوله تعالى ودع أذاهم أي دعه الى الله فانه يعذبهم بايديكم وبالنار (رازي مجلد ٦ وجه ٧٨٩ و ٧٩٠)

وتفسير الجلالين لهذه الآية ولا تطعهم فيما يخالف شريعتك واترك أذاهم لا تجازهم على كفرهم ونفاقهم وتوكل على الله فهو كافيك (جزء ثاني وجه ١٢٠)

(ملاحظة) لا غرو ان الاصابة للجلالين دون الرازي في تفسير هذه الآية وانك ترى في تفسيرها من الرازي عيباً وخطاء بيناً لا يجدر بعاقل نظيره . فأي بصير مميز يرى في القوم ودع أذيتهم انه يعذبهم بأيدي محمد وأتباعه فهل النهي عن اذاء القوم في عرفه انباء على ان المنهي سيعذب أولئك القوم بأيدي المنهي عن أذاهم وقومه فكأن الامام رام التوفيق بين هذا النهي والردع عن أذية الكافرين والمنافقين وبين القول ،، ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله فان تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً ،، (سورة النساء آية ٨٨) فاختلف هذا المعنى الغريب عن النص ودع أذيتهم ولم يدر ان التوفيق بين هذين القولين والجمع بين هذين الضدين ليس بايسر من التوفيق بين النار والماء والجمع بين الحرام والحلال

ثم ان النص في هذه الآية بيان لعلة وجود الآية ،، لا اكراه في الدين ،، والآية أفأنت تكره الناس حتى يؤمنوا وهو الايذاء المكره فكأن محمداً كان هم أو بدى بأذية القوم لاكراههم على قبول الاسلام فنهي بهما عن الاكراه واذا كانت تانك الآيتان اخباراً بمعنى النهي عن الاكراه فالقول ودع أذاهم نهي بين وهكذا فلا نرى الا نهياً يتبع نهياً وتحريضاً يتبع تحريضاً على عدم التعرض للمشركين بسوء واذاء . بل الاقتصار على ابلاغهم وانذارهم ومجادلتهم

بالتي هي أحسن فتأمل

أُدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ « النحل آية ١٢٦ »

(التفسير) ملخص التفسير قال ادع الاقوياء الكاملين الى الدين الحق بالحكمة وهي البراهين القطعية اليقينية وعوام الخلق بالموعظة الحسنة وهي الدلائل اليقينية الاقناعية الظنية وتكلم مع المشاغبين بالجدل على الطريق الاحسن الاكمل ثم قال تعالى ان ربك هو اعلم بالمهتدين والمعنى انه مكلف بالدعوة الى الله تعالى بهذه الطرق الثلاث فأما حصول الهداية فلا يتعلق بك (رازي مجلد ٥ وجه ٥٣٥)

وتفسيرها في الجلالين هو ادع الناس يامحمد الى سبيل ربك دينه بالحكمة اي القرآن والموعظة الحسنة مواعظه أو القول الرقيق وجادلهم بالمجادلة التي هي احسن كالدعاء الى الله بآياته والدعاء الى حججه .. ان ربك أعلم بمن ضل .. فيجازيهم (جزء اول وجه ١٤٤)

(ملاحظة) هذه الآية بيان لوظيفة محمد وهي دعوة الملا الى سبيل الله بالبرهان والدليل بالرفق والحلم والاقتصار على ذلك فليت محمداً استمر على هذه المعاملة ووقف عند هذا الحد ولم يتخطاه الى الغزو والاغتيال كاغتياله الرجال الذين لم يقبلوا دعوته أو نكتوا عليه ككعب ابن الاشرف وابي عفك الشيخ وسفيان ابن خالد وابي رافع ابن أبي عقيق الامر الذي لايجدر بذي البأس فكم بالاولى من هو باعتبار نبي مرسل للارشاد والهدى

وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا « بني اسرائيل مكية آية ١٠٦ »

(التفسير) ملخص التفسير قال أعلم انه تعالى لما بين ان القرآن معجز قاهر دالٌ على الصدق . . . ثم حكي ان الكفار لم يكتفوا بهذا المعجز بل طلبوا سائر المعجزات ثم أجاب الله بانه لاحاجة لاظهار سائر المعجزات وبين ذلك بوجوه كثيرة منها ان قوم موسى عليه الصلاة والسلام اتاهم الله تسع آيات بينات فلما جحدوا بها أهلكهم الله فكذا ههنا . ثم انه تعالى لو أتى قوم محمد تلك المعجزات التي اقترحوها ثم كفروا بها وجب عذاب الاستئصال بهم وذلك غير جائز في الحكمة لعلمه تعالى ان منهم من يؤمن والذي لايؤمن فسيظهر من نسله من يصير مؤمناً ولما تم هذا الجواب عاد الى تعظيم حال القرآن وجلالة درجته فقال وبالحق انزلناه وبالحق نزل والمعنى انه ما أردنا بانزاله الا تقرير الحق والصدق ثم قال تعالى " وما أرسلناك الا مبشراً ونذيراً " والمقصود ان هؤلاء الجهال الذين يقترحون عليك هذه المعجزات ويترددون عن قبول دينك لاشيء عليك من كفرهم فاني ما أرسلتك الا مبشراً للمطيعين ونذيراً للجاحدين فان قبلوا الدين الحق انتفعوا به والا فليس عليك من كفرهم شيء (رازي مجلد ٥ وجه ٦٦٧ و ٦٦٨)

(ملاحظة) ان دعوى كون القرآن معجزاً قد تكلمنا عليها وابنا بطلانها في الباب الاول من هذا المؤلف وكذلك مسئلة عذاب الاستئصال فلتراجع في محالها ثم لايخفى على القاريء العزيز ان لفظة الا في هذه الآية تفيد الحصر بان محمداً ليس هو أكثر من مبشر ونذير ما أرسل الا الى ذلك اذا أقام بهما يكون أدى كل ما عليه فليس له ان يتجاوز أمر التبشير والانذار لانه ماأرسل (حسب الآية) الا الى ذلك . ولنفرض ان الآية كانت بسبب اقتراح القوم على محمد آيات معجزات كآيات موسى وعيسى وان المراد بها ان محمداً ماأرسل لعمل الآيات نقول يدخل تحت هذا الحصر ايضاً انه ما أرسل لقتال الناس بداعي اكراههم والجائهم الى الدين الممنوع كلياً بالآيات المتقدمة وبعد فلا أحلى ولا أجمل من كلمتي مبشر ونذير لان الاولى خبر خير والثانية خبر عن شر مقبل ممكن توقيه مبشر للمطيعين ونذير للجاحدين فاسألك اذا الجاء هذا

المبشر والنذير الى وسائل القهر والاكراه ألا يكون قد تجاوز حدود ارساليته هذه وهل يبقى مقام لحرف في آية وما أرسلناك الا مبشراً ونذيراً وهل يمكن للقوم ان يتوسموا فيه المبشر وهم لا يرونه الا عاتياً قاهراً مجبراً يدعو الملا بحد سيفه الى قبول دعوته أو اداء الجزية عن يد وهم صاغرون . وهل من عاقل يرى لزوماً للقول وما أرسلناك الا مبشراً ونذيراً اذا كان سبحانه أرسله لغزو الاقوام وقسرهم على الاسلام وهل من مسلم مدرك حر الفكر لا يرتبك كل الارتباك لدى تأمله بمثل هذه الآيات البينات وهو يرى محمداً رجل حروب وفتوحات وغنائم لا لعمري لا . .

إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ « سورة الزمر مكية آية ٤٢ »

(التفسير) خلاصته أن محمداً كان يعظم عليه اصرار القوم على الكفر فقال تعالى انا أنزلنا عليك الكتاب الكامل الشريف لنفع الناس ولاهتدائهم به وجعلناه مقروناً بالحق وهو المعجز الذي يدل على انه من الله فمن اهتدى فنفعه يعود عليه ومن ضل فضير ضلاله يعود عليه وما أنت عليهم بوكيل والمعنى لست مأموراً بأن تحملهم على الايمان على سبيل القهر بل القبول وعدمه مفوّض اليهم وذلك لتسلية الرسول في اصرارهم على الكفر (رازي مجلد ٧ وجه ٢٦٥ و ٢٦٦)

(ملاحظة) لا زالت الآيات تتوارد بالسور المتتابعة ان محمداً ليس على الناس بحفيظ أو وكيل وما فتئ المفسرون يذهبون في تفسيرها ان الله ما جعل النبي على الناس وكيلاً لقهرهم وقسرهم على الايمان أو مجازاتهم على اعراضهم وعدم ايمانهم فقد ورد ذلك كما قد رأيت بست آيات في خمس سور ٣ في سورة الانعام و ١ في سورة يونس و ١ في سورة شورى

و ١ في سورة الزمر وما جاء في تفسير هاته الآيات هو ليس لمحمد مجازاة الناس على تكذيبهم اياه بل ذلك لله . لا آخذكم بالايمان أخذ الحفيظ والوكيل بل أحفظ أعمالكم وأجازيكم عليها انما أنا منذر والله الحفيظ عليكم . وان الالجاء الى قبول البصائر من الله يبطل الغرض منها وهو الثواب أي انه لا يكون ثواب لمن ألجيء الى قبول دلائل الله . وان محمداً ما جعل عليهم حفيظاً أو وكيلاً على سبيل المنع لهم . وان لا يجب على النبي من السعي في ايصال القوم الى الثواب العظيم وفي تخليصهم من العذاب الاليم أزيد مما فعل وهو التبشير والبلاغ والانذار . وان محمداً مافوض اليه أمر القوم وقسرهم على الايمان وان الله هو الرقيب على اعمالهم ومحاسبهم عليها .وليس محمد مأموراً بحمل القوم على الايمان على سبيل القهر بل القبول وعدمه مفوض اليهم انتهى

فلقد رأينا في هذه الآيات وامثالها في هذا الباب أربعة أمور حرية بالاعتبار

(الاول) عدم جواز الاكراه في الدين (ثانياً) عدم جواز مجازاة المعرضين عن قبول دعوة محمد (ثالثاً) عدم وجوب منع التصدق عليهم (رابعاً) بيان العمل الذي أرسل اليه محمد الذي هو التبشير والانذار وتحديده على سبيل الحصر . فانظر اذا كان محمد ليس فقط منهياً عن اتخاذ وسائل الاكراه والقهر بل مأموراً بالاحسان لغير المؤمنين لئلا يكون مسك التصدق عليهم وسيلة الجائهم الى الدين لكون الاكراه والالجاء الى الايمان ينافي التكليف ويبطل الغرض من الدين الذي هو الثواب وان محمداً ما أرسل لمثل ذلك فهل يبقى من محل بعد لآيات القتال أو من مسوغ للاكراه والالجاء والقهر كلا لانه كيف يكون لا اكراه في الدين وفي الدين اكراه . وكيف الاكراه والالجاء الى الدين غير نافع ونافع وكيف محمد ما أرسل لمثل ذلك وأرسل اليه فهل لعمرك من نقيضين أعظم من هذين وهل من سبيل للجمع بينهما . هل يسوغ ان ينسب لله الكامل القدوس مثل هذا التناقض والتضاد

أي ان يقول ما أرسلت عبدي فلانا الا لعمل كذا وكذا ثم يقول بل أرسلته أيضاً لعمل كذا وكذا وما أرسلت عبدي ليفعل كذا ثم ينقض قوله ويقول بل أرسلته ليفعله وما أقمته على الناس وكيلاً ليكرههم أو يقاصهم ثم يقول أقمته ليجاهد الكفار والمنافقين كلا وحاشا لله ان يأتي مثل ذلك جل وعلا عنه علوّاً كبيراً

تذييل

من المعلوم ان محمداً الناطق بهذه الآيات السلمية مدة بقاءه في مكة سار بموجبها بتواضع وحلم ودعة وكذا بعد هجرته الى يثرب مدة وانما حين استفحل أمره وعظم شأنه بوفرة انصاره وابطاله رأي ثم من مصلحته ومصلحة اصحابه وتبعته العدول عن منهج السلم والدعة والاقتصار على البلاغ والانذار الى منهج الغزو والغارات . فانقلب من مبشر ونذير الى قاهر مجبر ومن رجل الدعة والسكينة الى رجل الحرب والقتال اذ أخذت آيات القتال تنصبُّ عليه صباً فلم يبق لتلك الآيات السلمية من مقام الاعتبار سوى مجرد وجودها في القرآن وليس من غرضنا في ذيل هذا الباب الخوض في مسئلة الناسخ والمنسوخ لاننا أفردنا لها باباً مخصوصاً سوى اننا نسأل المسلم الفطن من خلا لبه من شائبة العصبية وراق ذهنه من عكر الاغراض الطائفية ألا يرى ديمومة الغرض في هذه الآيات أي الاخذ بها والعمل بموجبها الى ان تقترب الساعة وتنقضي الدنيا واذا كانت هذه الآيات هكذا راسخة ثابتة دائمة الغرض كما قد تبرهن لك ينتج من ذلك ان العدول عنها عدول عن اطاعة منزلها فهل يسلم بذلك والا فليرنا المخرج من هذه الدائرة وله الفضل . نعم ان بعض المفسرين لم يروا في وسعهم كما رأيت الاّ جعل غرض هذه الآية موقتاً لغاية تنزيه القرآن عن الاختلاف والتضاد على ان تعبهم في ذلك يذهب ادراج الرياح لدى القارئ النبيه الذي لا يرى فيها أدنى الماع الى الوقت بل بالحري كل جزء منها يبين انها كانت للعمل بها على الدوام واذا على فرض حاول قيد عقله واسر فكره الى ما ارتآه الآخرون من

وقتيتها بغية التأليف بين آيات القرآن يلقى من نفسه مقاومة ومن ضميره توبيخاً انك لمن الظالمين ظلمت الحق وعقلك لان هذه الآيات هي الاولى في القرآن وهي غير قابلة الالغاء والزوال

على اني لا أصدق ان مسلماً لبيباً مخلصاً يرى ان هذه الآيات انما أنزلت للعمل بها ما دام الرسول في حالة العجز والضعف وتلغى أو تطوى متى اعتزّ بالرجال وتقوى بالعدد والمال وهو يقرأ فيها كما بالقلم العريض ,, لا اكراه في الدين ،، وما أرسلناك الاّ مبشراً ونذيراً ,, عليك البلاغ وعلينا الحساب ،، وهنا في عيني المسلم العاقل مشكل لا يرى الى حله من سبيل وهو اذا كانت الآيات هكذا مكينة ثابتة لاتطوى ولا تلغى فأين المحل لآيات القتال للاكراه الى الدين والانتقام من الذين لا يؤمنون وانّى له التوفيق بينها واذا كان ذلك محالاً فكيف يكون نوعا الآيات من الله والتملص من هذا الاشكال بالقول سبحان الله انه فوق كل ذي علم عليم لا يغني عنه مثيل فسبحان الله مدى الادهار غير ان تسبيح الله واجلاله شيء وفهم الآيات واعتبارها والعمل بها شيء آخر وفق الله عباده الى طاعته وتمجيده بمنه وكرمه انه على كل شيء قدير وبالاجابة جدير

الباب الثالث

(في الناسخ والمنسوخ في القرآن)

مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ « البقرة آية ١٠٠ »

(التفسير) في تفسير هذه الآية مسائل وأوجه كثيرة مستطيلة الكلام نأتي بأهمها ملخصاً قالوا ان النوع الثاني من طعن اليهود في الاسلام انهم قالوا ألا ترون محمداً يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمرهم بخلافه. ويقول اليوم قولاً وغداً يرجع عنه فنزلت هذه الآية

ومن المسائل في تفسير هذه الآية انهم اتفقوا على وقوع النسخ في القرآن وقال أبو مسلم بن بحر انه لم يقع واحتج الجمهور على وقوعه بوجوه (احدها) هذه الآية " ما ننسخ من آية أو ننسها " الى آخر الآية (الثاني) ان الله تعالى أمر المتوفي عنها زوجها بالاعتداد حولاً كاملاً ثم نسخ ذلك بأربعة أشهر وعشراً . (الثالث) انه تعالى أمر بثبات الواحد للعشرة بقوله فان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ثم انه نسخ ذلك بقوله تعالى الآن خفف عنكم وعلم ان فيكم ضعفاً فان يكن منكم مئة صابرة يغلبوا مائتين (الرابع) انه نسخ القبلة عن بيت المقدس الى حرم مكة وايضاً قوله تعالى « واذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا انما أنت مفتر . . . » فالتبديل يشتمل على رفع واثبات والمرفوع اما التلاوة واما الحكم فكيف كان فهو رفع ونسخ . « أوننسها » ان النسيان يصح في هذه الآية بان أمر الله بطرح ذلك المنسي من القرآن واخراجه من جملة ما يتلى ويؤتي به من الصلاة أو يحتج به . يروى انهم كانوا يقرأون السورة فيصبحون وقد نسوها أو ننسها ان نتركها وهي الآية التي صارت منسوخة في الحكم ولكنها غير منسوخة في التلاوة (رازي مجلد ١ وجه ٦٥٧ــ٦٦٢)

وتفسيرها من البيضاوي هو قال نزلت الآية لما قال المشركون أواليهود ألا ترون محمداً يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمر بخلافه ونسخ الآية بيان انتهاء التعبد بقرائتها والحكم المستفاد منها أو بهما جميعاً " ماننسخ " أي نأمرك أو جبريل بنسخها أو تجدها منسوخة " وننسها " أي ننسي أحداً اياها وينسهاأي انت وقرأ عبد الله " ماننسك من آية أو ننسخها نأت بخير منها أو مثلها " أي بما خير للعباد في النفع والثواب أو مثلها في الثواب " ألم تعلم ان الله على كل شي قدير " فيقدر على النسخ والاتيان بمثل المنسوخ وبما هو خير منه الآية دلت على جواز النسخ . . . (مجلد ١ وجه ١٠٤ و ١٠٥)

وتفسيرها من الجلالين هو ماننسخ من آية أي نزل حكمها اما مع لفظها أولا وفي قراءة بضم النون من أنسخ أي نأمرك أو جبريل بنسخها أو

ننسها نؤخرها فلانتزل حكمها ونرفع تلاوتها أو نؤخرها في اللوح المحفوظ أوننسها أي ننسكها أي نمحها من قلبك وجواب الشرط " نأت بخير منها "، أنفع للعباد في السهولة أو كثرة الاجر « أو مثلها » في التكليف والثواب « ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير » ومنه النسخ والتبديل والاستفهام للتقرير (جزء أول وجه ١١)

(ملاحظة) للقاري العزيز في تفسير هذه الآية ثلاث نكت . (النكتة الاولى) الداعي الى طعن المشركين واليهود في الاسلام وما من ذي نصفة لايرى هذا الطعن في محله من وجهين (الأول) هو لشهرة العرب بثبات القول كشهرتهم في الكرم فالموت أحب اليهم من تغيير قولهم والاخلاف في وعودهم فلما رأوا محمداً يغير ويبدل في مقاله اي يرجع عما سلف من قوله ويأمر في الغد بما نهى عنه في أمسه انكروا عليه ذلك لمنافاته العادة العربية وحسبوا الاسلام العوبة لايجدر بالعاقل قبوله

(الوجه الثاني) لان اليهود لم يعهدوا مثل ذلك في شرعهم ولا كان في انبيائهم . أي لاأمر ولا نهي من أوامر ونواهي الشرع الذي أعطي بموسى نسخ بلسانه أو بلسان خلفه يشوع وكل الانبياء بعد موسى حتى المسيح صادقوا على شرع موسى كما أنزل بدون تغيير أو تبديل مّا فلما رأوا محمداً وهو يدعي النبوة ينسخ ليس فقط من أحكام التوراة بل كثيراً من الاحكام المدعي انزالها عليه من عند الله اتباعاً لظروف الزمان والمكان انكروا دعواه حاسبين ذلك منه ضرباً من الحيل السياسية

(النكتة الثانية) هي الدلالة من مثل هذه الآيات الناسخة على ضعف قائلها والله سبحانه حاشا ان يشوبه ضعف أو عجز فينتج من ذلك انها ليست من عندالله لان تنقيص عدة المتوفي عنها زوجها من حول كامل الى أربعة أشهر وعشرة أيام وثبات الواحد الى عشرة الى ثبات الواحد لاثنين ليس الا ضعف بين في القائل كانه جهل المستقبل وهوان طول العدة هكذا للمترملة لاتناسب بعد حين لما ان ذلك يضحي تجربة لها أو حملاً ثقيلاً على من يتوق الى

الزواج بها وان في المسلمين ضعفاء يعجزهم الضعف عن ثبات واحدهم للعشرة كقول الآية وعلم ان فيكم ضعفاء . ألم يعلم علام الغيوب ذلك لما قال بثبات واحدهم للعشرة وان كان ولا بد عليه لِمَ لم يكن أمره منذ الاول واحداً بحيث لايكون داع الى نسخه فمن أين اذاً هذا الناسخ لذاك المنسوخ

(النكتة الثالثة) في الانساء والنسيان المختلف فيهما قال بعضهم ان الله أمر بطرح ذلك المنسي من القرآن وبعضهم ان المنسي منسوخ في الحكم لافي التلاوة وبعضهم قالوا بالامرين أي بالقراءة والحكم نحت أو وأو ويفسر ننسها ننسي أحداً اياها وتنسهاأي أنت ياجبريل وبعضهم نزيل حكمها اما مع لفظها أو لا أو نزيل حكمها ونرفع تلاوتها أو نؤخرها أو نمحوها من قلبك يامحمد فعلى أي أو أيها المسلم النية تعتمد وبأي تأويل تأخذ وبعد فان الآيات المنسوخة لم تزل من القرآن فهي لاتزال فيه تتلى من المسلمين خلافاً للمذهب الاول غير انها لاحكم لها . ثم ان كلة ننسها تفيد النسيان أي ذهاب تلك الآية من ذهن السامع والقارئ كما لو كانت لم تسمع ولم تقل وفقاً للرواية انهم كانوا يقرأون السورة فيصبحون وقد نسوها ولما كانت هذه المنسوخة لم تزل في القرآن تقرأ وتسامع وتعقل فاين القول أو ننسها وهي غير منسية وعليه فالآية المزعوم انزالها لابكام اليهود والخامهم أو لراحة أفكار المسلمين المزعجين بذلك الطعن المقبول قد زادت الطين بلة والمفسرون قد جعلوه مرقاً لاينفع فلا أعلم كيف يمكن المسلم الحر الفكر ان يعتبر هذه الآية وتأويلها علاجاً شافياً لذلك للطعن ودفعاً قانونيا لذلك الاعتراض وليس في الغاء فرع أو بند من بنود الشرع والاتيان ببند مثله أو خير منه مايدل على القدرة الباهرة حتى يقال في ذلك « ألم تعلم ان الله على كل شيء قدير » بل بالحري مايشف عن ضعف المؤلف الذي ينقح تأليفه بالالغاء والتغيير والتبديل في جمله وكلماته كعادة ارباب التأليف من الناس

وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ

مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ « سورة النحل اية ١٠٣ و ١٠٤ »

(التفسير) ملخصه قال ابن عباس كانت اذا نزلت آية فيها شدّة ثم نزلت آية ألين منها تقول كفار قريش والله ما محمد الاّ يسخر بأصحابه اليوم يأمر بأمر وغداً ينهي عنه وانه لا يقول هذه الاشياء الا من عند نفسه فأنزل الله هذه الآية « واذا بدلنا آية مكان آية » ومعنى التبديل رفع الشيء مع وضع غيره في مكانه وتبديل الآية رفعها بآية أخرى غيرها وهو نسخها بآية سواها وقوله والله أعلم بما ينزل من الناسخ والمنسوخ والتغليظ والتخفيف أي هو أعلم بجميع ذلك في مصالح العباد وهذا التوبيخ للكفار على قولهم انما أنت مفتر أي اذا كان هو أعلم بما ينزل فما بالهم ينسبون محمداً صلى الله عليه وسلم الى الافتراء لاجل التبديل والنسخ « بل أكثرهم لا يعلمون » حقيقة القرآن وفائدة النسخ والتبديل وان ذلك لصالح العباد « ورح القدس » هو جبريل عليه السلام أضيف الى القدس وهو الطهي أي ان جبريل نزل القرآن من ربك ليثبت الذين آمنوا أي ليسلوهم بالنسخ .... على ان مذهب أبي مسلم الاصفهاني في ان النسخ غير واقع في هذه الشريعة فقال المرادههنا اذا بدلنا آيةً مكان آية في الكتب المتقدمة مثل انه حول القبلة من بيت المقدس الى الكعبة قال المشركون انما أنت مفتر في هذا التبديل وأما سائر المفسرين فقالوا النسخ واقع في هذه الشريعة والكلام فيه على الاستقصاء مذكور في سائر السور وذهب الشافعي ان القرآن لا ينسخ بالسنة واحتج على صحة مذهبه هذا بقوله « واذا بدلنا » آية مكان آية يقتضي ان الآية لا تصير منسوخة الاّ بآية أخرى وهو ضعيف لان لادلالة في الآية على انه تعالى لا يبدل آية الا بآية وأيضاً فجبريل عليه السلام قد ينزل بالسنة كما ينزل بالآية (رازي مجلد ٥ وجه ٥١٩ و ٥٢٠)

وتفسيرها من البيضاوي هو بدّلنا بالنسخ فجعلنا الآية الناسخة مكان المنسوخة لفظاً وحكما « والله أعلم بما ينزل » من المصالح فلعل ما يكون مصلحة في وقت يصير مفسدة بعده فينسخه وما لا يكون مصلحة حينئذ يكون مصلحة الآن فيثبته مكانه « قالوا انما أنت مفتر » أي متقول على الله تأمر بشيء ثم تبدل ذلك فتنهي عنه وهو جواب اذاً الله أعلم بما ينزل « بل اكثرهم لايعلمون » أي لا يعلمون حكمة الاحكام ولا يميزون الخطأ من الصواب « قل نزّله الروح القدس » يعني جبريل عليه السلام واضافة الروح الى القدس وهو الطهي كقولهم حاتم الجود (مجلد اول وجه٦٨١)

وفي الجلالين « واذا بدلنا آية مكان آية » بنسخها وانزال غيرها لمصلحة العباد والله أعلم بما ينزل قالوا أي الكفار للنبي صلى الله عليه وسلم انما أنت مفتر كذاب تقول من عندك بل اكثرهم لا يعلمون حقيقة القرآن وفائدة النسخ (جزء أول وجه ٢٥٦)

﴿ ملاحظة ﴾ ليس في الآية اعلاه من دفع صحيح أو برهان مقنع لمشركي قريش الذين رموا محمداً بالافتراء على الله فيما يدعيه انه من عند الله بقولهم والله ما محمد الاّ يسخر باصحابه . . . وانه لا يقول هذه الاشياء الاّ من عند نفسه ومن يا ترى لا يرى طعنهم هذا في محله أولاً من وجه الالغاء والتبديل والثاني لان المشترع لم يأت بآية قاهرة تثبت كون هذا القرآن وهذا النسخ هو من عند الله والآية ليست بشيء من الدفع لتلك السهام لانه اذا كان القوم اعتبروا القرآن اختلاق محمد فتكون الآية داخلة تحت ذلك الاعتبار فلا تؤثر فيهم وهين على الانسان أن يدعي لقوله التنزيل من الروح القدس انما ذلك لا يكون برهاناً على صحة دعواه ويظهر من الآية انها لم تكن الاّ لازالة الريبة من قلوب أصحاب محمد بقولها ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين فيلوح لك من ذلك ان اصحابه تأثروا من طعن قريش بسبب التغيير والتبديل من محمد في القرآن ورابهم الامر في صحة دعواه فكانت الآية « واذا بدلنا آية مكان آية الخ » فهذه الآية

كسالفتها والداعي لهما واحد كما ترى غير ان المفسرين هنا يزيدوننا تنويراً في بيانهم سبب هذا التبديل آية بآية وهو انما كان لما هو فيه من المصلحة وان الطاعنين بالاسلام من هذا القبيل ما طعنوا الاّ لانهم لا يعلمون حقيقة القرآن وفائدة النسخ والتبديل وان ذلك لمصالح العباد الى آخر القول . فنقول لايصدق بان العرب النبهاء لم يروا فائدة النسخ والتبديل في القرآن لفيئة تصدوا الى الغزو والفتوحات والغنائم كون الآيات المنسوخة والمبدلة أكثرها ليس فقط لاتوافقها على هذا المرام بل تنهاها عنه كما رأيت فيما تقدم في الباب الثاني ولم يظهر قط انهم قالوا بعدم فائدة النسخ والتبديل انما حين رأوا محمدا يلغي ويبدل من القرآن بما يراه أوفق للمصلحة والحال حسبوا القرآن مختلقاً من نفس محمد بداعي انه لو كان من عندالله لما وقع فيه هذا النسخ والتبديل مجاراة للمرام البشري ولتقلبات القلب الانساني . وبعد فعلى موجب التأويل المعول عليه يكون تغيير الظروف وتقلبات الاحوال أوجب للنسخ والتبديل في القرآن كأن القرآن على مايكون المسلمون لا المسلمون على ماهو القرآن وكانه سبحانه ملتزم بقوله مجاراة العبد فيلغي اليوم من الاحكام التي أنزلها أمس او يبدلها بما يرضي ذلك المخلوق ويوافق أمياله ومشاربه تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً. ولمن المعلوم البين ان الانسان من دأبه التقلب في الآراء والتغيير في المناهج لما هو عليه من الفساد والضعف والقول بانه عزوجل ينسخ ويبدل من أوامره واحكامه ويحل من حرامه وفقاً لمشارب أمته ومصلحة عباده هو محض افتراء عليه تعالى كيف لا وهو العليم الثابت القول الراسخ الرأي الذي انما يعلن للعباد ارادته وينزل على الانسان أحكامه وفقاً لكماله وعلو شأنه ليس هو انساناً فيكذب او ابن انسان فيندم فهل يقول ولا يفعل سبحانه من مجيد جليل لا خلاف في قوله ولا تبديل

وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً

مِنكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا « سورة النساء مدنية آية ١٩ »

(التفسير) قال زعموا ان هذه الآية صارت منسوخة بالحديث وهو ماروى عبارة ابن الصامت ان النبي صلى الله عليه وسلم قال خذوا عني خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلاً البكر بالبكر والثيب بالثيب البكر تجلد وتنفى والثيب تجلد وترجم ثم ان هذا الحديث صار منسوخاً بقوله تعالى الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد مائة جلدة وعلى هذا الطريق يثبت ان القرآن قد ينسخ بالسنة وان السنة قد تنسخ بالقرآن . هذا رأي فريق من المفسرين والفريق الثاني ان هذه الآية صارت منسوخة بآية الجلد . واعلم ان أبا بكر الرازي لشدة حرصه على الطعن في الشافعي قال القول الاول أولى لان آية الجلد لو كانت متقدمة على قوله خذوا عني لما كان لقوله خذوا عني فائدة فوجب أن يكون قوله خذوا عني متقدماً على آية الجلد وعلى هذا التقرير تكون آية الحبس منسوخة بالحديث ويكون الحديث منسوخاً بآية الجلد فحينئذ ثبت ان القرآن والسنة قد ينسخ كل واحد منهما الآخر ثم يستضعف البعض تفسير أبي بكر الرازي ويفسر فامسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت او يجعل الله لهن سبيلا بان امساكهن في البيوت محدود الى ان يجعل الله لهن سبيلاً وذلك السبيل كان مجملاً فلما قال صلى الله عليه وسلم خذوا عني الثيب ترجم والبكر تجلد وتنفى صار هذا الحديث بياناً لتلك الآية لا ناسخا لها الى ان يقول ومن المعلوم ان جعل هذا الحديث بياناً لاحدى الآيتين ومخصصاً الآية الاخرى أولى من الحكم بوقوع النسخ مراراً واما أصحاب أبي حنيفة فيذهبون بان آية الحبس صارت منسوخة بآية الجلد (الرازي مجلد٣ وجه ٢٤٤ و ٢٤٦ و ٢٤٧)

(ملاحظة) لقد جاءتنا هذه الآية وتأويلها بغرائب مدهشة لم تكن في الحسبان وهو نسخ القرآن بالسنة والسنة بالقرآن أي قد ينسخ احدهما

الآخر فانعم به من طراد بين السنة والقرآن . زعموا ان السنة قد نسخت الآية المتقدمة بحديث خذوا عني كما رأيت فيما تقدم ثم انتصر القرآن لنفسه بان نسخ حكم السنة المذكورة بقوله الزاني والزانية فاجلدوا كل واحد مئة جلدة

فكأن القرآن والحديث باعتبار هذه المسألة خصمان يروم كل منهما امتهان الآخر فتأمل . ثم ان بعضهم تخلصاً من هذا الامر المعيب ذهبوا ان الحديث خذوا عني ... انما هو بيان لآية الحبس لا ناسخ لها مفسرين أو يجعل الله لهن سبيلاً ان هذا السبيل هو ما روي في الحديث الجلد والنفي للبكر والجلد والرجم للثيب فهل يا ترى من مسلم بصير مخلص يرضى بذلك وهو يرى ان آية الحبس مبدولة بآية الجلد فلو ان ذلك السبيل المنوّه عنه بآية الحبس هو النفي والرجم بحسب رواية الحديث لكانت آية الجلد التابعة أبانت ذلك ولما ان هذه الآية نسخت الحديث بالنفي والرجم كما تقدم بيانها ثبت ان حديث الرجم ليس هو السبيل المنوّه عنه في آية الحبس فانظر حفظك الله أيسوغ ان ينسب مثل هذا العمل لله الجليل العليم والا يكون امتهاناً لله القول بانه سبحانه يقول قولاً ثم ينسخه بقول ينافيه ثم ينسخ الناسخ بقول آخر أيليق مثل ذلك بعظماء الدنيا كلاّ وهل بلغك عن عظيم في الارض أتى بمثله فان كان ذلك لا يجدر بالانسان فكم بالاولى لا يجدر برب السموات والارض سبحانه ان يشوبه شائبة وجل وعلا عما اليه ينسبون

تذييل

ليس في القرآن أغرب من مسئلة الناسخ والمنسوخ ولا أشكل منها في عيني المسلم الفطن فلا بدع ان تأخذه الحيرة لدى النظر في هذه المسئلة نظراً دقيقاً خالياً من شائبة الغرض وهل يقدر أن يرى القول بان المنسوخة كانت في وقت انزالها غاية في المناسبة لمصلحة الاسلام اذ كان المسلمون حينئذ بحال الوهن والضعف فاقتضى ابدالها حال اعتزاز الاسلام بما هو خير منها حلاً صحيحاً لهذا الاشكال وهو يرى الآية الفاصلة « وما أرسلناك الاّ

بشيراً ونذيراً » (سورة اسرائيل مكية آية ١٠٤) لا لعمري وهل بالاقل لا يدور في خلده عدم امكان التمييز الصحيح بين الناسخ والمنسوخ ويقول لعل الناسخ عندي هو المنسوخ أو ان المنسوخ عندي هوالناسخ فما ادراني ان القول لا اكراه في الدين (البقرة آية ٢٥٢) ناسخ للاكراه وأليس ان بعض علمائنا يفسرونها انها اخبار بمعنى النهي اي لا تكرهوا في الدين (راجع باب ٢ وجه ٢٢) والا ما الداعي لانزالها وقد كان سالف محمد في الانبياء عيسى ابن مريم المشهور بالدعة والحلم والاحسان الى الناس سواء المقتصر في دعوة الملأ على المحبة والاعمال الخيرية الموصي حواريه وأمته بحب الاعداء ومعاملة ذوي الاساءة بالاحسان واهل الغلظة بالرفق والاناة فلو ان عيسى عليه السلام جاء مكرهاً الناس الى الدين وعقبه ارسال محمد رحمة للعالمين لكان ذلك داعياً للقول لا اكراه في الدين تحريراً له من اتباع خطة عيسى في الاكراه أي يامحمد لا تحذو حذو سالفك عيسى باكراه الناس الى الدين أنت رسول الله الى الناس وما على الرسول الاّ البلاغ ولما لم يكن عيسى مكرهاً يستبان ان الاية نهي لمحمد عن الاكراه وعليه فهي ناسخة لامنسوخة وما يزيد المسئلة جلاء الاية « أفأنت تكره الناس حتى يؤمنوا وماكان لنفس ان تؤمن الاّ باذن الله » الخ الآية (١) فكيف يعلل عن الباعث لانزال هذه وتلك الاّ اذا كان محمد ابتدأ بالاكراه أو نواه فاقتضى انزالها نهياً اليه وردعاً له عن نهج هذا المنهج واذاكان الله ينهي محمداً عن الاكراه والاعتداء مبيناً انه تعالى ما أرسله الاّ لمثل ذلك كما قد رأيت في مجمل الآيات الواردة في ذلك الباب ينتج من ذلك ان نسخها وابدالها بآيات الاكراه كما يزعمون خلاف والتواء عديم المثال لانها أي الآيات المتقدمة ما هي الاّ نهي عما جال في خاطر محمد أو شرع به واذا نسخ هذا النهي بالمنهي عنهُ يكون ذلك عبارة عن حرب قائمة على قدم وساق بين آيات القرآن كانه من ضدين لا يجتمعان . وعليه يسوغ ان يقال انه حين اختلج في صدر

(١) يونس آية ٩٧ و ٩٨

محمد حب الاكراه والجزاء أو الشروع في اتخاذ وسائله أتت الآيات الناهية له عن ذلك فأوقفت العمل الى انه لم يعد في وسعه وجلده الاقتصارعلى البلاغ والانذار والوقوف على حدود الآيات الناهية ولما لم يكن في وسعه اجتياز تلك الحدود الا بمسوغ شرعي كانت الآيات الناسخة لذلك النهي فاصبح من ثم المنهي عنه مأموراً به وغير النافع ولامفيد نافعاً وواجباً . وبعدفأي تضاد واختلاف اعظم مما بين القول « لا اكراه في الدين » والقول وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله (١) والقول وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين (٢) والقول « فاذا انسلخ الاشهر الحرام فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » (٣) وأيضاً . فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى اذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق الى آخر الآية (٤) والقول « وقل للذين أوتوا الكتاب والامين أأسلتم فان اسلموا فقد اهتدوا وان تولوا فانما عليك البلاغ والله بصير بالعباد (٥) والقول قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون (٦) والقول « لا تطع الكافرين المنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى به وكيلاً (٧) والقول ودّوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله فان تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً (٨) وأيضاً يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير (٩) والقول وما أرسلناك الاّ بشيراً ونذيراً (١٠) وأيضاً انما عليك البلاغ وعلينا الحساب (١١) وما أنت عليهم بوكيل

« ١ » البقرة آية ١٨٨ « ٢ » البقرة آية ١٥٨ « ٣ » التونة آية ٥ « ٤ » محمد آية ٤ « ٥ » آل عمران آية ١٨ « ٦ » التوبة آية ٢٨ « ٧ » الاحزاب آية ٤٥ « ٨ » النساء آية ٨٨ « ٩ » التوبة آية ٧١ وتحريم آية ١١ « ١٠ » اسرائيل آية ١٠٤ « ١١ » الرعد آية ٤٠

(١) والقول فقاتل في سبيل الله لا تكلف الا نفسك وحرّض المؤمنين (٢) وايضاً يا أيها النبي حرّض المؤمنين على القتال ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين (٣) الى غير ذلك مما يغنينا عن ذكره ما ذكر

وبعد فانه هرباً من القول بالتناقض والخلاف قيل هو ناسخ ومنسوخ اي ابطال حكم سابق بحكم تال بداعي ان الحكم السابق كان من منزله الى اجل معلوم . فحين بلغ أجله اقتضى نسخه وابداله بحكم آخر موافق لحالة الاسلام واذا طولبوا بالبرهان قالوا البرهان انما هو انزال الآيات الناسخة وهو كما لا يخفى ليس برهاناً البتة من وجهين (الوجه الاول) هو احتياج هذه الآيات الى البرهان كونها من عند الله (الوجه الثاني) كونها أمر بما قد سبق النهي عنه في تلك الآيات المزعوم نسخها غير ان المعتبر ان كل كلمة في مصحف القرآن هي من عند الله سواء وافقت حكم العقل ام لا ويعتبرون الناقض وهو مايسمونه الناسخ دليلا على انقضاء اجل المنسوخ . لكن اذا سألتهم بل اذا سألوا انفسهم وكانوا من ذوي الاخلاص ماهو الناسخ والمنسوخ اعجزوا عن بيانهما حق البيان لما يرون في المزعوم نسخه قوة النسخ لما زعموا انه ناسخ له كما في آية لا اكراه في الدين واخواتها كما قد رأيت فيما مر فلا أقدر أصدق ان ذوي النباله من المسلمين تسلم عقولهم بوقوع النسخ على مثل هذه الآيات الناهية والراهنة قطعاً وبتة عن القتال واتخاذ وسائل الاجبار والاكراه فكم بالحري غير المسلمين الذين يرون ان التغيير في النفس غير في القول . والميل الى ابدال المنهج ابدل الحكم والنزع الى الغزو والغنائم نسخ آيات السلم بآيات القتال واحال رجل الدعة والسكينة الى رجل الغارات والبطش والمبشر النذير الى قاهر وما يزيد ذلك تأييداً هو سبق الفعل للنسخ لا النسخ للفعل اي تعدي الحكم قبل نسخه وصيرورة ذلك التعدي وسيلة لنسخ المتعدى عليه كما ترى في مسئلة سرية عبد الله ابن جحش الاسدي الى نخلة فان الآية الناسخة

« ١ » شورى آية ٤ « ٢ » النساء آية ٨٣ « ٣ » الانفال آية ٦٥

للآية المانعة عن القتل في الاشهر الحرام التي هي « يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال كبير الى آخر الآية » انما كانت بعد ارتكاب عبد الله المذكور القتل في الشهر الحرام واعطاء خمس السلب لمحمد وتعيير قريش محمداً بارتكاب سريته القتل في الشهر الحرام ووقع ذلك في قلوب اصحابه (١) فالناسخ هنا تابع لامتبوع فتأمل ويماثل ذلك عدة من الآيات منها ما كان اتباعاً للرغائب كما في مسئلة تحويل القبلة من بيت المقدس الى الكعبة زعموا ان النبي كان يتمنى من الله تحويل القبلة الى حرم مكة فكانت الآية قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره (٢) فانظر ان محمداً اذ لم يكن راضياً بيت المقدس قبلة للعرب بل كان يود ابداله بحرم مكة لدواع سياسية كانت الآية وفق مرامه : وكذا آية زواجه بزينب امرأة زيد فانها ما نزلت الا بعد ان نظر تلك المرأة ووقعت في قلبه فقال سبحان الله مقلب القلوب وود التزوج بها لو وجد الى ذلك سبيلا ينزهه عن العار فنزلت الآية بسواغ ذلك له وهي واذ تقول للذي انعم الله عليه وانعمت عليه امسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله احق ان تخشاه فلما قضى زيد وطراً منها ازوجناكها الى آخر الآية (٣) ومنها ما كان مجاراة لضعف القوم بخيانتهم حكم الله في الصوم كما ترى في آية « أحل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم هن لباس لكم وانتم لباس لهن علم الله انكم كنتم تختانون انفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن » الى آخر الآية زعموا ان مجامعة النساء كانت محرمة ليلة الصيام على المسلمين كما على أهل الكتاب قبلهم بداعي الآية « كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين قبلكم » وذهب آخرون ان وقاع النساء كان جائزاً ليلة الصيام بشرط ان

« ١ » انظر السيرة النبوية المكية وجه ٢١٢ و ٢١٣ و ٢١٤ والرازي مجلد ٢ وجه ٣١٨ « ٢ » الرازي مجلد ٢ وجه ٢٠ « ٣ » الرازي مجلد ٦ وجه ٧٨٥ وبيضاوي مجلد ٢ وجه ٢٧٣ و ٢٧٤

لاينام الرجل وان لايصلي العشاء الاخيرة فاذا فعل أحدهما حرم عليه ذلك وانه حدث ان جماعة من المسلمين منهم عمر ابن الخطاب خانوا بذلك بان أتوا نسائهم بعد صلاة العشاء الاخيرة حتى قال محمد لعمر لم تكن جديراً بذلك ياعمر فنزلت الآية والقول فيها انكم كنتم تختانون انفسكم اي ترتكبون الخيانة بالجماع ليلة الصيام (١) ومنها ما كان حلاً لما حرّم محمد عليه ونحلة لايمانه بتحريم ذلك وهو يا أيها النبي لِمَ تحرّم ما احلّ الله لك تبتغي مرضاة ازواجك والله غفور رحيم قد فرض الله لكم تحلة ايمانكم والله موليكم وهو العليم الحكيم « سورة تحريم آية ١ و ٢ » زعموا ان سبب نزول هذه الآية هو ان محمداً واقع زوجته مارية القبطية في بيت زوجته حفصة ابنة عمر الخطاب وهي غائبة فجاءت فشقّ ذلك عليها . فارضاها وسألها الكتمان وذلك انه قال لها اكتمي عليّ وقد حرّمت مارية على نفسي وابشرك ان ابا بكر وعمر يملكان بعدي امر امتي وان حفصة اخبرت عائشة بذلك ولما لم تكتم امره طلقها واعتزل نساءه تسعة وعشرين يوماً حتى كما قيل نزل جبرائيل وامره بمراجعتها بداعي انها صوّامة قوّامة وقال مسروق حرم النبي صلى الله عليه وسلم ام ولده (يعني مارية) وحلف انه لا يقربها فأنزل الله هذه الآية فقيل له أما الحرام فحلال واما اليمين التي حلفت عليها فقد فرض الله لكم تحلة ايمانكم (٢) فانظر انه حرّم واثبت التحريم بالايمان وطلق وكأنه لما رأى ان لا ذنباً لمارية يوجب تحريمها عليه وعدم مناسبة طلاق بنت عمر الخطاب وتضايق من جرى ذلك ولا يليق بالنبي المشترع ان يحلّ الحرام ويحنث بالايمان ويراجع المطلقة بدون مسوغ شرعي وزوجة النبي لا تجوز لآخر كانت الآية من جهة تحليل مارية ونزول جبرئيل لمراجعة حفصة ومنها ما كان تبرئة لفعل أنكر على محمد فعله كما ترى في غزوة بني النضير (قبيلة يهود بجوار يثرب) اذ كان محمد في اثناء محاصرته اياهم

« ١ » رازي مجلد ٢ وجه ١٩٧ ــ ٢٠١ « ٢ » رازي مجلد ثامن وجه ٢٣١ و ٢٣٢ والجلالين جزء ثاني وجه ٢٤٤

يقطع نخيلهم فنادوهُ من الحصون يا محمد قد كنت تنهي عن الفساد وتعيبه على من صنعه فما بال قطع النخيل وتحريقها اهو افساد ام اصلاح فارتاب بعض اصحابه بجواز هذا الفعل وتأثروا من اعتراض بني النضير قيل فنزلت من ثم الآية « وما قطعتم من لينة (اللينة النخلة التي تمرها من دون نوى) أو تركتموها قائمة على أصولها فباذن الله ولنجزي الفاسقين » (١) ومنها ما كان بياناً لعدم جواز فعل صدر من محمد وهو صلاته على جثة المنافق (المؤمن ظاهراً والكافر باطناً) عبد الله بن أبي سلول ونهياً له عن اتيانه مثل ذلك فيما بعد اذ زعموا ان الآية « ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره انهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون » نزلت غب فراغ محمد من الصلاة على المذكور واقامته على قبره حتى نهاية دفنه وقالوا ان عمراً مانع محمداً من الصلاة على المذكور بداعي نفاقه فلم يمتنع فنزلت الآية مصداقاً لرأي عمر كعدة آيات غيرها مثل آية تحويل القبلة المتقدم ذكرها وآية الحجاب للنساء وآية تحريم الخمر (٢) فتأمل حفظك الله كيف كانت الرغائب والاميال والافعال والآراء مغنطيساً جاذباً لتلك الآيات المجارية . لعمرك هل رأيت لذلك نظيراً في التوراة ان الله نسخ حكماً من أحكامه وأحلّ حراماً من حرامه تبرئة للمتعدي أو الخائن أو أنزل شرعاً اتباعاً لرأي بشر ومجاراة لاميالهِ ومراعاة لرغائبه فرداً كان أو جماعة نبياً أو ملكا بل بالحري أيُّ خان أو تعدى حدود الشرع كان ينزل تعالى آياته تبكيتاً لذلك المتعدي وكثيراً ماكانت تنزل آيات الله ردعاً لقصد القاصد وميله لاجراء أمر غير مرضيّ لله أو ليس هو وفق الشرع قبل خروج تلك النوايا الى حيز الفعل فما أبعد هذا عن ذاك

وبعد فان كلاً من الناسخ والمنسوخ باق في المصحف فسكين المسلم السليم الطوية المخلص النية الذي يتلو هذه وتلك بكرةً وعشية بغاية الوقار والخشية

« ١ » السيرة النبوية جزء اول وجه ٢٩٣ و ٢٩٤ و ٢٩٥ « ٢ » رازي مجلد رابع وجه ٧٠٦ والسيرة النبوية جزء ثاني وجه ١٥٩ و ١٦٠

وهو جاهل أيهما باق وأيهما ملغى فانه لا محالة يؤخذ بالحيرة والريبة من تجاذب الآيات اياه من طرفي نقيضين فكأني به وهو في موقف التردد والتحير يقول آه وا أسفاه لِمَ هذا التباين والتضاد في القرآن أهو من مصدرين متضادين كلا وحاشا هو من عند الله الواحد الاحد اذاً ماذا وأين الحل لهذا الاشكال الغريب اني أخال حكم السلم فيه مكين مؤيد لقوله عز وجلّ انه ما بعث نبياً وارسله الاّ للتبشير والانذار لا مكرهاً ولا مجبراً لانه تعالى يقول لا اكراه في الدين وينهي محمداً عن مثل ذلك بآيات بينات مثل قوله أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين لست على الناس بحفيظ أو وكيل ليس عليك الاّ البلاغ قبلوا أو تولوا عليك البلاغ وعلينا الحساب وذلك لا جرم لطف من الله ورفق بالعباد كمنهاج عيسى وحواريه الاطهار وهل الله براجع عن قوله وناقض لحكمه وهو العليم الرحيم كلاّ وحاشا ولو انه سبحانه ارسل محمداً صلى الله عليه وسلم لقتال المشركين واكراههم على الدين أكان أنزل عليه مثل هذه الآيات المنافية لذلك والغير القابلة النسخ والنقض . أما كان تعالى اكتفى بانزال آيات الجهاد والقتال وهو القادر على نصر رسوله في كل حال فما هذا الاشكال الذي لا أرى الى حله من سبيل .ماذا اعمل ولاي جهتي القولين أميل . أأحترم الآيات كالقانون للايمان والعمل ومنها مبطل وقائم وناقض ومنقوض لا حول ولا ....

ثم أقول لا بدع ان يأخذ قارئ القرآن العجب من الدعوى بسلامته من الاختلاف بقول الآية « ولو كان من عند غير الله لوجد فيه اختلافاً كثيراً » ويزيده تعجباً واندهالاً عدم اعتبار أئمة الاسلام وعلمائه الناسخ والمنسوخ فيه اختلافاً كأن حسبان ذلك عدم اختلاف قضية بديهية لا تقبل جدال مكتفين بالبحث فيما يعده بعضهم اختلافاً من حيث اللغة والركاكة في بعض الالفاظ والتكرار غير المفيد وايضاح الواضح الى غير ذلك كما قد رأيت فيما مر في الباب الاول (وجه ١٣ و ١٤ و ١٥) فنسألهم أليست الآيات الناسخة مخالفة للمنسوخة والمنسوخة ضد الناسخة فماذا يا مسلم تسمي

هذا التباين والتضاد الا ترى نوعي الآيات في هذا الباب مختلفين متضادين بلى . اذاً القرآن فيه اختلاف كثير فهو اذاً من عند من . نترك ذلك لحكمتك وانصافك هداك الله محجة الصواب وان انصفت اجزل لك حسن الثواب

الباب الرابع

﴿ الآيات المبينة ان الكتاب التوراة والانجيل ﴾

(لم يعتره تغيير ولا تحريف لفظي)

وَلاَ تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ «البقرة آية ٢٩»

(التفسير) لا تلبسوا الحق بالباطل أمر بترك الاغوا والاضلال واعلم ان اضلال الغير لا يحصل الاّ بطريقين وهو اما ان كان سمع دلائل الحق فاضلاله لا يمكن الا بتشويش تلك الدلائل عليه وان كان ما سمعها فاضلاله انما يكون باخفاء تلك الدلائل عنه ومنعه من الوصول اليها فقوله ولا تلبسوا الحق بالباطل اشارة الى القسم الاول وهو تشويش الدلائل عليه وقوله وتكتموا الحق اشارة الى القسم الثاني وهو منعه من الوصول الى الدلائل واعلم ان الاظهر في الباء التي في قوله بالباطل انها باء الاستعانة والمعنى ولا تلبسوا الحق بسبب الشبهات التي توردونها على السامعين وذلك لان النصوص الواردة في التوراة والانجيل في أمر محمد عليكم كانت نصوصاً خفية يحتاج في معرفتها الى الاستدلال ثم انهم كانوا يجادلون فيها ويشوشون وجه الدلالة على المتأملين فيها بسبب القاء الشبهات فهذا هو المراد بقوله ولا تلبسوا الحق بالباطل (رازي مجلد اول وجه ٤٦٥)

وتفسيرها في البيضاوي هو « ولا تلبسوا الحق بالباطل » اللبس الخلط

وقد يلزمه جعل الشيء مشتبهاً بغيره والمعنى لا تخلطوا الحق المنزل عليكم بالباطل الذي تخترعونه حتى لا يميز بينهما أو لا تجعلوا الحق ملتبساً بسبب خلط الباطل الذي تكتمونه في خلاله أو تذكرونه في تأويله « وتكتمون الحق وأنتم تعلمون » كانهم أمروا بالايمان وترك الضلال ونهوا عن الاضلال بالتلبيس على من سمع الحق والاخفاء على من لم يسمعه أي لا تجمعوا لبس الحق بالباطل وكتمانه وأنتم تعلمون عالمون بانكم لابسون كاتمون فانه أقبح اذ الجاهل يعذر (مجلد ١ وجه ٧٦ و ٧٧)

وفي الجلالين تخلطون الحق الذي أنزلت عليكم بالباطل الذي تغيرونه وتكتمون الحق نعت محمد وأنتم تعلمون (جزء أول وجه ٩)

(ملاحظة) انك ترى اتفاق هؤلاء المفسرين العظام لهذه الآية ان التلبيس والكتمان كانا بالتأويل والاخفاء فيستحقون منا على ذلك طيب الثناء وعليه فنقول اذا كان أهل الكتاب وهم يعلمون أمر محمد في كتابهم أي نعته وصفته (كما سترى في تفسير الآيات التالية) ولم يقدموا ولا أسلافهم على نزع ذلك منه أو تحريفه فقط اقتصروا على تشويش تلك الدلائل على السامع ينتج من ذلك انهم كانو أمناء على كتابهم كما أنزله تعالى وان قول بعض عامة المسلمين بتحريف الكتاب لفظاً هو لقول ساقط لا يستحق ان يعار شيئاً من الاعتبار

أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ «البقرة آية ٧٢ »

(التفسير) في تفسير هذه الآية آراء ووجوه كثيرة نجتزي بذكر أشهرها ملخصاً . زعموا ان محمداً واصحابه طمعوا في اقياد يهود المدينة الى الاسلام كما يروون ان محمداً حين دخل المدينة ودعى اليهود الى كتاب الله

وكذبوه انزل الله تعالى هذه الآية واختلفوا في الفريق منهم فمنهم من قال هو من كان في أيام موسى ومنهم بل المراد بالفريق من كان في زمن محمد عليه الصلاة والسلام والامام الرازي يقول ان هذا أقرب لان الضمير في قوله تعالى « وقد كان فريق منهم » راجع الى ما تقدم وهم الذين عناهم الله تعالى بقوله « أفتطمعون ان يؤمنوا لكم » واختلفوا في كلمة ثم يحرفونه فقال بعضهم ان التحريف اما ان يكون في اللفظ أو في المعنى وحمل التحريف على تغيير اللفظ اولى من حمله على تغيير المعنى . . . وان لم يكن ذلك فيجب ان يحمل على تغيير تأويله وان كان التنزيل ثابتاً وانه يمتنع ذلك اذا ظهر كلام الله ظهوراً متواتراً كظهور القرآن فاما قبل أن يصير كذلك فغير ممتنع تحريف نفس كلامه . . . الى ان يقول وأما ان قلنا بان المحرفين هم الذين كانوا في زمن موسى عليه السلام فالاقرب انهم حرفوا ما لا يتصل بامر محمد (صلى الله عليه وسلم) واما ان قلنا ان المحرفين هم الذين كانوا في زمن محمد (صلى الله عليه وسلم) فالاقرب ان المراد تحريف أمر محمد وذلك اما انهم حرفوا نعت الرسول وصفته أو لانهم حرفوا الشرائع كما حرفوا آية الرجم . وظاهر القرآن لايدل على انهم أي شيء حرفوا « من بعد ما عقلوه وهم يعلمون » فلقائل يقول قوله تعالى عقلوه وهم يعلمون تكرار لا فائدة فيه أجاب القفال عنه من وجهين (الاول) من بعد ما عقلوا مراد الله فأوّلوه تأويلاً فاسداً يعلمون انه غير مراد الله تعالى (الثاني) . انهم عقلوا مراد الله تعالى وعلموا ان التأويل الفاسد يكسبهم الرزء والعقوبة من الله تعالى (رازي مجلد اول وجه ٥٧٣ — ٥٧٦

وتفسيرها في البيضاوي هو فريق منهم طائفة من اسلاف اليهود « يسمعون كلام » يعني التوراة « ثم يحرفونه » كنعت محمد وآية الرجم أو تأويله فيفسرونه بما يشتهون « من بعد ما عقلوهُ » اي فهموه بعقولهم ولم يبق لهم فيه ريبة « وهم يعلمون » انهم مفترون مبطلون ومعنى الآية ان احبار هؤلاء ومقدميهم كانوا على هذه الحالة فما طمعك بسفلتهم وجهالهم

وانهم وان كفروا وحرفوا فلهم سابقة في ذلك (مجلد اول وجه ٩١)

(ملاحظة) انه وان يكن ما تقدم في الآية الاولى وتأويلها كافياً لبيان عدم تحريف الكتاب فلابد لنا من الملاحظة على كل آية ترد في هذا الباب لتنوع الآيات وتلون تفسيرها . انك ترى ان كلا الرازي والبيضاوي متفقان على ان التحريف المذكور بالآية انما هو التاويل الفاسد والاخفاء ويختلفان في ذلك الفريق المحرّف فان الرازي يذهب انه كان في زمن محمد والبيضاوي انه طائفة من اسلاف اليهود معاصري محمد فسواء كانوا يهودا في زمن محمد او اسلافهم المسئلة واحدة من جهة التحريف وهي انهم كانوا يحرفون كلام الله بتأويله او اخفائه كما في مسئلة آية الرجم لا بتغيير وتبديل الالفاظ في مواضعها حسبما ذهب بعضهم أي امكان وقوع ذلك قبل ظهور كلام الله ظهوراً متواتراً الذي سنبين بطلانه فيما يأتي

وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ « البقرة آية ٩٧ »

(التفسير) خلاصته ان المنبوذ من الذين أوتوا الكتاب هو التوراة فان قيل كيف يصح نبذهم للتوراة وهم يتمسكون به قلنا أذا كان يدل على نبوة محمد عليه الصلاة والسلام لما فيه من النعت والصفة وفيه وجوب الايمان ثم عدلوا عنه كانوا نابذين للتوراة اما قوله تعالى « كانهم لايعلمون » فدلالة على أنهم نبذوه عن علم ومعرفة لانه لايقال ذلك الا فيمن يعلم فدلت الآية من هذه الجهة على ان هذا الفريق كانوا عالمين بصحة نبوته الا انهم جحدوا ما يعلمون (الرازي مجلد اول وجه ٦٣٤ و ٦٣٥)

وتفسيرها من الجلالين « رسول من عند الله » محمد صلى الله عليه وسلم الكتاب التوراة نبذوها اي لم يعملوا بما فيها من الايمان بالرسول وغيره

كأنهم لايعلمون من انهُ نبي حق اوانها كتاب الله (جزء اول وجه ١٦و١٧)

(ملاحظة) انك ترى والحمد لله ان كل آية في هذا الباب مصداق لما سلفها بعدم تحريف الكتاب فان هذه الآية المؤولة تعلن لذي البصيرة ان نبذ بعض أهل الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم انما هو عدولهم عما تضمن من الدليل على نبوة محمد حسبما يزعمون او جحود ماهم يعلمونه من هذه الحيثية لانزعه من كتابهم فكأن محمداً لما اكد عدم تحريف اهل الكتاب كتابهم رشقهم بالتلبيس والكتمان والنبذ اي التأويل الفاسد لتشويش الدلائل والكتمان والعدول والاغضاء عما يرونه في كتابهم من الدلالة عليه وهو اكفى بيان لاهل القرآن على عدم مس الكتاب بتحريف ما

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ ٱلنَّارَ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ « البقرة آية ١٧٠ »

(التفسير) زعموا ان هذه الآية نزلت في اليهود قال ابن عباس نزلت هذه الآية في رؤساء اليهود ككعب ابن الاشرف وكعب ابن أسد ومالك ابن الصيف وحيي بن اخطب وابي ياسر ابن اخطب كانوا يأخذون من اتباعهم الهدايا فلما بعث محمد عليه السلام خافوا انقطاع تلك المنافع فكتموا أمر محمد عليه السلام وأمر شرائعه فنزلت هذه الآية واختلفوا في انهم اي شيء كانوا يكتمون فقيل كانوا يكتمون صفة محمد (صلى الله عليه وسلم) ونعته والبشارة به وهو قول ابن عباس وقتادة والسدي والاصم وابو مسلم واختلفوا في كيفية الكتمان فالمروي عن ابن عباس انهم كانوا محرفين يحرفون التوراة والانجيل وعند المتكلمين هذا ممتنع لانهما كانا كتابين بلغا في الشهرة والتواتر الى حيث يتعذر ذلك فيهما بل كانوا يكتمون التأويل لانه قد كان فيهم من يعرف الآيات الدالة على نبوة محمد عليه السلام وكانوا يذكرون لها تأويلات باطلة

ويصرفونها عن محاملها الصحيحة الدالة على نبوة محمد فهـذا هو المراد من الكتمان فيصير المعنى ان الذين يكتمون معاني ما انزل الله من الكتاب (الرازي مجلد ثاني وجه ١٣٢ و١٣٣)

وتفسيرها في الجلالين هو ان الذين يكتمون من التوراة نعت محمد وهم اليهود ويشترون به ثمناً قليلا من الدنيا يأخذونه بدله من سفلتهم فلا يظهرونه خوف فوته عليهم يكون مآلهم النار (جزء اول وجه ٢٨)

(ملاحظة) لك في تأويل هذه الآية أمران خطيران (الاول) ان تحريف التوراة والانجيل ممتنع لبلوغهما مبلغ الشهرة والتواتر بحيث يتعذر ذلك فيهما (الثاني) كتمان المعاني من آيات الكتاب بتأويلها تأويلا فاسداً يصرفها عن محاملها الصحيحة فهذان الامران هما فصل الخطاب على ان اهل الكتاب ليس فقط لم يقدموا على تحريف كتابه تعالى بل كانوا أمناء على حفظ آياته كما انزلت . واذا كان علماء اليهود واشرافهم حسب الآية وتأويلها يكتمون ما في التوراة من صفة محمد ونعته والبشارة به خوفاً من سقوط اعتبارهم في عيون العامة وانقطاع المنافع الجارية عليهم يتضح من ذلك ان القوم لم يتجرأوا على تحريف آية من كتابهم وربما لم يخطر لهم ذلك ببال فلم يبق لهم حسب تأويل الآية الا الكتمان وهو اما كتمان الكلمات حسب تأويل الآيات المتقدمة او كتمان المعاني حسب تأويل هذه الآية واذا كان علماء الاسلام بعد محمد ادركوا مراد الآيات هكذا فكم بالاولى محمد علم سلامة الكتاب من التحريف فقال « يأهل الكتاب لِمَ تكفرون بآيات الله وانتم تشهدون » اي تنكرونها على من لم يسمعها وانتم عالمون بها شاهدون لها

يَا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ « آل عمران آية ٦٨ »

(التفسير) في قوله بآيات الله وجوه خلاصتها (الاول) المراد منها

الآيات الواردة في التوراة والانجيل المبشرة بمحمد عليه السلام (الثاني) انهم كانوا كافرين بنفس التوراة لانهم كانوا يحرفونها وكانوا ينكرون وجود تلك الآيات الدالة على نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم وأما قوله وانتم تشهدون فالمعنى على هذا القول انهم عند حضور المسلمين وعند حضور عوامهم كانوا ينكرون اشتمال التوراة والانجيل على الآيات الدالة على نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم ثم اذا خلا بعضهم مع بعض شهدوا بصحتها ومثله قوله تعالى تبغونها عوجاً وانتم شهداء (الرازي مجلد ثاني وجه ٧٠٨)

(ملاحظة) يفهم من هذه الآية وتأويلها ان أهل الكتاب لم ينسخوا من كتاب الله الآيات التي يزعم محمد انها تعنيه وتبشر به ولا انهم حرفوها لانهم حسب الآية كانوا يكفرون بها أي ينكرونها وهم يشاهدونها في كتابهم وذلك لا يبقي محلا لتهمة أهل الكتاب بتحريف كتابهم ولو كان من شيمهم تحريف الكتاب لكانوا بالاولى أزالوا منه تلك الآيات المزعوم انها انباء عن محمد وبشرى به أو بدلوها عوض انكارهم اياها وهم يشاهدونها ولانهم لما لم يفعلوا ذلك يتضح انهم كانوا محافظين بكل حرص واعتناء على سلامة الكتاب كما أنزل من عند الله

وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ « آل عمران آية ٧٧ »

(التفسير) ان هذه الآية نازلة في حق اليهود وهي معطوفة على ما قبلها واعلم ان اللي عبارة عن عطف الشيء ورده عن الاستقامة الى الاعوجاج وذهب بعضهم بان اللي باللسان عبارة عن تحريف اللفظ في حركات الاعراب الى أن يقول ههنا سؤالات (السؤال الاول) الى ماذا يرجع الضمير في قوله لتحسبوه الجواب الى ما دل عليه قوله يلوون

ألسنتهم وهو المحرف ﴿ السؤال الثاني ﴾ كيف يمكن ادخال التحريف في التوراة مع شهرتها العظيمة بين الناس الجواب لعله صدر هـذا العمل عن نفر قليل يجوز عليهم التواطؤ على التحريف ثم انهم عرضوا ذلك المحرف على بعض العوام وعلى هذا التقدير يكون التحريف ممكناً والاصوب عندي (الرازي) في تفسير الآية وجه آخر وهو ان الآيات الدالة على نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم كان يحتاج فيها الى تدقيق النظر وتأمل القلب والقوم كانوا يوردون عليها الاسئلة المشوشة والاعتراضات المظلمة فكانت تصير تلك الدلائل مشتبهة على السامعين واليهود كانوا يقولون مراد الله من هذه الآيات ما ذكرناه لا ما ذكرتم فكان هذا هو المراد بالتحريف وبليّ الالسنة وهذا مثل ما ان المحق في زماننا اذا استدل بآية من كتاب الله تعالى فالمبطل يورد عليه الاسئلة والشبهات ويقول ليس مراد الله ما ذكرت فكذا في هذه الصورة (مجلد ثاني وجه ٧٢٠ و ٧٢١)

وتفسيرها في الجلالين هو وان منهم أي أهل الكتاب لفريقاً طائفة ككعب ابن الاشرف يلوون السنتهم بالكتاب اي يعطفونها بقراءته عن المنزل الى ما حرفوه من نعت النبي ونحوه لتحسبوه أي المحرف من الكتاب الذي نزله الله وما هو منه ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون انهم كذابون (جزء اول وجه ٦٤)

﴿ ملاحظة ﴾ ان هـذه الآية بينة المعنى الى حـد تستغني به عن التأويل وهي من نوع الآية سالفتها قد بينت نوع تحريف بعض اليهود للتوراة وهو لفظ الكلام باللسان بخلاف ما هو في التوراة لان هذا الفريق كان على حسب الآية يعلم انه بذلك يقول الكذب على الله أو هو يعلم ان آيات التوراة خلاف ما يقول وهذا أيضاً دليل راهن على عدم اقدام اهل الكتاب على تحريف كتابهم وانا نثني على الامام الرازي ونمدح ذكائه لانه لم ينخرط في سلك أهل الغباوة كالذين يجيبون على السؤال الثاني في تفسير الآية بقولهم الواهن السخيف لعلّ هذا العمل صدر عن نفر

قليل يجوز عليهم التواطوء على التحريف ثم انهم عرضوا ذلك المحرف على بعض العوام وعلى هذا التقدير يكون التحريف ممكناً فنجيب مثل هؤلاء (اولا) انه لا يعول على قضية مبنية على لعلّ وربما لخلوها من الدليل والبرهان (ثانيا) لان تقديرهم هذا يطلق بالاولى على جامعي القرآن فما وجهوه على اهل التوراة تحت لعل يتوجه طبعاً على اهل القرآن لان جامعيه كانوا نفراً قليلا (ثالثاً) نسألهم من هم ذلك النفر القليل الذي حسب زعمهم لعل صدر عنهم تحريف التوراة فليبينوه لنا ان قدروا. أبهذا المقدار يجهلون تاريخ بني اسرائيل حتى لا يعلموا ان موسى قبل ان أنزلت عليه التوراة كان تحت رياسته وقيادته نحو المليونين منهم وقد كتب لهم التوراة وكانت تتلى عليهم في حياته مدة اربعين سنة وقد وليه يشوع بن نون وعدد من الانبياء هم أصحاب الاسفار النبوية اذاً لعلهم هذه لا محل لها وشهرة التوراة وتواترها يمنع ادخال التحريف فيها ويكفينا مودى المتكلمين في تأويل هذه الآية ان هذا الفريق المشار اليه فيما كانوا يحرفون الآيات بألسنتهم لالوائها او ردّها من استقامتها أو جعلها مشتبهة على السامعين بالاسئلة المشوشة والاعتراضات المظلمة وان هذا هو المراد بالتحريف وبليّ الالسنة فتأمل

وَإِذْ أَخَذَ اللّٰهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ « آل عمران آية ١٨٤ »

(التفسير) خلاصته ان أمتي موسى وعيسى لايذاء محمد كانوا يكتمون مافي التوراة والانجيل من الدلائل الدالة على نبوته فكانوا يحرفونها او يذكرون لها تأويلات فاسدة والمراد من النهي والكتمان ان لايقولوا فيها التأويلات الفاسدة والشبهات المعطلة (الرازي مجلد ٣ وجه ١٦٨ و ١٦٩)

وتفسيرها في الجلالين هو ان الله أخذ العهد على بني اسرائيل في

التوراة التي أتاهم ليبينوه للناس ولا يكتمونه او ولا تكتمونه (قراءتين) فطرحوه ولم يعلموا به آخذين بدله ثمناً قليلاً من سفلتهم برياستهم في العلم فكتموه خوف فوته عليهم فبئس شراؤهم هذا (جزء اول وجه ٧٨)

(ملاحظة) انا لانرى محمداً يطعن البتة بسلامة الكتاب التوراة والانجيل ولا يسمي اليهود والنصارى الا أهل الكتاب وقط لم يقل لهم ان هذه التوراة ليست هي التي أنزلت على موسى وهذا الانجيل ليس هو الذي أنزل على عيسى كما يهذر بعض جهلاء المسلمين في هذا العصر انما فقط يرميهم بالتلبيس والكتمان والاخفاء للدلائل التي يزعم انها تدلُّ على نبوته وتبشر به كما يقول الامام في تفسير الآية السالفة وهو ان الآيات الدالة على نبوة محمد (صلى الله عليه وسلم) كان يحتاج فيها الى تدقيق النظر وتأمل القلب والقوم (يعني أهل الكتاب) كانوا يوردون عليها الاسئلة المشوشة والاعتراضات المظلمة فينتج من ذلك أمران الاول ان ليس لمسلم ان يرمي أهل الكتاب بتحريفهم كتابهم (الثاني) ان ذلك يوجب عليه اقتناء التوراة والانجيل الكائنين بيد اليهود والنصارى والانعكاف على دراستهما ككتاب الله بتدقيق النظر والتأمل والاحترام وعليه فيكون المعول عليه في الاستدلال على نبوة محمد الكتاب المقدس الكائن بيدي الطائفتين المذكورتين وليس ذلك فقط بل يلزم المسلم الاخذ بما فيه والقيام به

مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا « النساء آية ٤٤ »

(التفسير) نقتصر في ذلك على جملة يحرفون الكلم عن مواضعه . في تفسير هذه الجملة رايان او مذهبان أحدهما انهم كانوا يبدلون اللفظ بلفظ آخر مثل تحريفهم اسم ربعة عن موضعه في التوراة بوضعهم آدم طويل مكانه . فان قيل كيف يمكن هذا في الكتاب الذي بلغت آحاد حروفه وكلماته مبلغ التواتر المشهور في الشرق والغرب قلنا لعلّ يقال ان القوم كانوا قليلين والعلماء بالكتاب غاية في القلة فقدروا على هذا التحريف . والثاني ان المراد بالتحريف القاء الشبهة الباطلة والتأويلات الفاسدة وصرف اللفظ عن معناه الحق الى معنى باطل بوجوه الحيل اللفظية كما يفعله أهل البدعة في زماننا هـذا بالآيات المخالفة لمذهبهم وهذا هو الاصح . ومن الآراء في ذلك انهم كانوا يدخلون على النبي صلى الله عليه وسلم ويسألونه عن أمر فيخبرهم ليأخذوا به فاذا خرجوا من عنده حرفوا كلامه (الرازي مجلد ٣ وجه ٣٣٧ و ٣٣٨)

وتفسيرها في الجلالين « يحرفون الكلم عن مواضعه » اي يميلونه عن مواضعه التي وضعه الله فيها اما لفظاً باهماله او تغيير وضعه واما معنى بحمله على غير المراد واجرائه في غير مورده (مجلد أول وجه ٢٢٨)

يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ « سورة المائدة آية ١٣ »

(التفسير) يحرفون الكلم عن مواضعه اي من بعد ان وضعه الله مواضعه اي فرض فروضه وأحلّ حلاله وحرم حرامه . قال المفسرون ان رجلاً وامرأة من اشراف خيبر زنيا وكان حد الزنا في التوراة الرجم فكرهت اليهود رجمهما لشرفهما فارسلوا قوماً الى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يسألونه عن حكمه في الزانيين اذا احصنا وقالوا ان أمركم بالرجم فاحذروا ولا تقبلوا فلما سألوا الرسول (صلى الله عليه وسلم) عن ذلك نزل جبرايل بالرجم فأبوا ان يأخذوا به فقال له جبرايل عليه السلام اجعل بينك وبينهم ابن صوريا فقال الرسول هل تعرفون شاباً أمرد أبيض أعور يسكن فدك يقال له ابن صوريا قالوا نعم وهو أعلم يهودي على وجه الارض فرضوا به حكماً فقال

له الرسول (صلى الله عليه وسلم) انشدك الله الذي لااله الا هو الذي فلق البحر لموسى ورفع فوقكم الطور وانجاكم واغرق آل فرعون والذي أنزل عليكم كتابه وحلاله وحرامه هل تجدون فيه الرجم على من أحصن قال ابن صوريا نعم فوثبت عليه سفلة اليهود فقال خفت ان كذبته ان ينزل علينا العذاب ثم أمر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بالزانيين فرجما عند باب مسجده اذ عرفت القصة فنقول قوله يحرفون الكلم عن مواضعه اي وضعوا الجلد مكان الرجم (الرازي مجلد ثالث وجه ٥٩٨)

(ملاحظة) انك ترى في تفسير هاتين الآيتين اللتين هما شيء واحد ثلاثة مذاهب (الاول) ابدال اللفظ بلفظ آخر (الثاني) التأويل الفاسد (الثالث) الكتمان والاخفاء اما الاول فهو ساقط راجع وجه ٥٦ و ٥٧ غير ان فيه أمراً يستدعي النظر وهو مسئلة قامة ابينا آدم واني لاعجب كيف رضي لانفسهم هؤلاء القائلون بقول باد زيفه كما تبدو الشمس لذي بصر فاين يوجد في التوراة ان آدم كان طويل القامة هل اتوا ذلك من باب الظن او على قول من قال من أهل الخرافة والغباوة فاتخذوه دليلا على تحريف أهل الكتاب كتابهم . وكان الجدير بهم ان يتصفحوا التوراة اولاً ليروا أصحيح ماقيل ام لا فلا يلقون بانفسهم في وهدة الخذل هكذا . فالحمد لله ان هذا هوالشيء الوحيد الذي زعموا تحريفه لفظاً في التوراة حال كونه لاوجود له فيها البتة ومايدعو الى وفرة التعجب عدم انتباه هؤلاء الى مفاد الآيات القرآنية بهذا الشأن الذي هو ان أهل الكتاب كانوا يشهدون في كتابهم الآيات المبشرة بمحمد فكانوا اما يلبسونها بالباطل اي بالتأويل الفاسد اويخفونها عن الآخرين وذلك لايدع قط سبيلا لتهمة أهل الكتاب بتحريف كتابهم لافي الاول ولا في الآخر ولو كان وقع التحريف اللفظي في الكتاب لذكره القرآن ولما رمى أهله بالتلبيس والكتمان والاخفاء كما قد رأيت وان القائلين بتقدير امكان تحريف التوراة يلوح لك من مقالهم انهم غير واثقين به لاسنادهم اياه الى حرف لعلّ

وهو تقدير غاية في الوهن والضعف قد ألجأهم اليه شدة الافتقار والعوز فلا نؤاخذهم كثيراً وان الامام وغيره من ذوي النباهة لم يعيروا هذا المقال شيئاً من الاعتبار كما رأيت . بقي ان تحريف الكلم عن مواضعه هو القاء الشبه الباطلة عليه والتأويلات الفاسدة والاخفاء كما في مسئلة الزانيين المذكورين أو أيضاً تحريفهم كلام محمد غب خروجهم من عنده حسب الرأي الاخير في تفسير الآية الاولى من الرازي (وجه ٧٢)

وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ ٱلتَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ « المائدة آية ٤٤ »

(التفسير) ملخصه ان هذا تعجب من الله على تحكيمهم محمداً حال كون الحكم في الزاني هو في التوراة عندهم وذلك من وجه دليل عنادهم وغيهم اذ يعدلون عن حكم الله في كتابهم الى حكم محمد طلباً للرخصة بعدم الرجم ومن وجه عدولهم عن حكم يعتقدونه من الله الى حكم من يعتقدون فيه بطل دعواه بالرسالة والنبوة (الرازي مجلد ثالث وجه ٦٠٠)

وتفسيرها في الجلالين هو وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله بالرجم استفهام تعجب اي لم يقصدوا بذلك معرفة الحق بل ماهو أهون عليهم ثم يتولون يعرضون عن حكمك بالرجم الموافق لكتابهم من بعد ذلك التحكيم وما أولئك بالمؤمنين انا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور أي هدى من الضلالة وبيان للاحكام (جزء أول وجه ١١٧)

(ملاحظة) ان هذه الآية مع تفسيرها تأتينا بثلاثة أمور حرية بالاعتبار (الاول) شهادتها لليهود بان عندهم التوراة فيها حكم الله وهذه الشهادة قاطعة لكل قول بتحريف التوراة وما من مسلم ذي نيرة الا ويرى انه لو شاب التوراة تحريف ما منهم لما كان نص الآية وعندهم التوراة فيها حكم الله (الثاني) لكون التوراة التي عند اليهود فيها حكم الله وفيها هدى ونور فهي لامراء

تغنيهم عن تحكيم محمد أو غيره واذا كانت تغنيهم عن تحكيمه في أمر الزانيين فهي تغنيهم أيضاً عن تحكيمه في أمر تحتاجه انفسهم لان فيها هدى من الضلالة (الثالث) اذا كان اليهود ما حكموا محمداً الا لامل ان يحكم في تلك المسئلة بما هو اهون عليهم من حكم التوراة فيظهر انهم لم يمسوها بتحريف ما ولو نافت احكامها أهواءهم أو لم يكن لهم سبيل الى ذلك لتواترها المشهور شرقا وغرباً والشهادة على ذلك « وعندهم التوراة » فتأمل ان التوراة التي فيها حكم الله هي عند اليهود وهي كلمة تنزهها عن كل تحريف وتبديل فتنبه

وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْانْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللّٰهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللّٰهُ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ « المائدة آية ٤٨ »

(التفسير) يقول فان قيل كيف جاز ان يؤمروا بالحكم بما في الانجيل بعد نزول القرآن قلنا الجواب عنه من وجوه (الاول) ان المراد ليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه من الدلائل الدالة على نبوة محمد (صلى الله عليه وسلم) وهو قول الاصم (الثاني) وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه مما لم يصر منسوخاً بالقرآن (الثالث) المراد من قوله وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه زجرهم عن تحريف مافي الانجيل وتغييره مثل مافعله اليهود من اخفاء احكام التوراة فالمعنى بقوله « ليحكم أهل الانجيل » اي وليقرأ أهل الانجيل بما أنزل الله فيه على الوجه الذي أنزل الله فيه من غير تحريف ولا تبديل (الرازي مجلد ثالث وجه ٦٠٧)

(ملاحظة) لايخفى على القاري العزيز مافي هذه الآية من بيان سلامة الانجيل في زمان محمد من التحريف والتصحيف كونها حثاً لاهله على الحكم بما أنزل الله فيه . والقول بأن يراد بذلك الدلائل الدالة على نبوة محمد فما هو الا تعزيز لبيان عدم تحريفه اذ لو كان محرفاً لما كانت الآية وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه يعني الدلائل المشار اليها . ولما كان

ذلك زجراً لهم عن تحريفه كما فعل اليهود من اخفاء احكام التوراة . والخلاصة ان لك في الآية دليلين راهنين (الاول) سلامة الانجيل من شائبة التحريف (الثاني) وجوب الاعتماد عليه والاخذ بما فيه واذا وجب ذلك على أهل الانجيل وجب على اتباع محمد أيضاً لينظروا فيه ويحكموا بما أنزل الله ليس فقط بخصوص الآيات المزعوم أنها دالة على نبوة محمد بل أيضاً بخصوص الشهادات البينة ليسوع المسيح لانه بعد هذه البينات القرآنية على عدم تحريفه مما ذكرنا ومما سيأتي لايجوز للمسلم أن يعتبر بعض آياته دون بعض بل عليه اعتباره بكل أجزائه انجيل الله للعمل به والايمان بما أنزل الله فيه

مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ « الجمعة آية ٥ »

(التفسير) ملخصه حملوا التوراة كلفوا العمل بها ثم لم يحملوها لم يعملوا بما فيها من نعته صلى الله عليه وسلم فلم يؤمنوا به .

كمثل الحمار يحمل اسفاراً أي كتباً في عدم انتفاعه بها بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله المصدقة للنبي محمد (صلى الله عليه وسلم) (الجلالين جزء ثاني وجه ٣٣٨)

وتفسيرها في الرازي هو انه تعالى ضرب هذا المثل للذين اعرضوا عن العمل بالتوراة والايمان بالنبي عليه السلام والمقصود منه انهم لما لم يعملوا بما في التوراة شبهوا بالحمار لانهم لوعملوا بمقتضاها لانتفعوا بها ولم يوردوا تلك الشبه وذلك لان فيها نعت الرسول عليه السلام والبشارة بمقدمه والدخول في دينه . وقوله حملوا التوراة اي حملوا العمل بما فيها وكلفوا القيام بها وقيل حملوا بالتخفيف والمعنى ضمنوا أحكام التوراة ثم لما لم يضمنوها ولم يعملوا بما

فيها ... شبه اليهود اذ لم ينتفعوا بما في التوراة وهي دالة على الايمان بمحمد (صلى الله عليه وسلم) بالحمار الذي يحمل الكتب العلمية ولايدري مافيها وقال أهل المعاني هذا المثل مثل من يفهم معاني القرآن ولم يعمل به واعرض عنه اعراض من لايحتاج اليه (مجلد ثامن وجه ٢٠٤)

(ملاحظة) انه لواضح ان هذه الآية هي بحق يهود زمان محمد وهي تبين انهم أؤتمنوا على التوراة كابائهم وكانوا أمناء على حفظها سالمة كما أنزلت لان تشبيههم في هذا المثل بالحمار الحامل اسفاراً لايدري ما فيها ولا ينتفع بها دلالة على عدم مسهم التوراة بتحريف ما لان الحمار الحامل اسفاراً لايتعرض لها بشيء من مثل ذلك ولا يستطيعه. وعليه فهم لم يتعرضوا للتوراة باذى انما حسب الآية كذبوا بآيات الله فيها يعني التي تدل على محمد وحسب التفسير لم يعملوا بما فيها بل أوردوا الشبه على تلك الآيات الدالة عليه والمبشرة بمقدمه فاي بيان يا ترى أجلى من هذا البيان على عدم مس اليهود توراتهم بتحريف ما . واذا كان ذلك كذلك فالتوراة لم تزل اليوم كما كانت يومئذ وهي باللغة العربية كما بالعبرانية فليبادر المسلمون الى دراستها وتفحص تلك الدلائل فيها المزعوم انها تعني محمداً مع اعتبار قرائنها وامثالها من الآيات النبوية والاشارات الرمزية الشرعية فيها بالاخلاص وخلو الغرض، فانهم لاجرم يرونها لاتخص قط محمداً وهي تبعد عن قصده بعد السموات عن الارض . وبعد فانا مدينون للقرآن على وفرة شهاداته لسلامة التوراة والانجيل واقراره باننا أهل الكتاب ليس كأن كتابنا اونحن مفتقرون الى مثل هذه الشهادة بل لاجل تنوير وافادة ابناء جلدتنا المسلمين ليشاركونا في اعتناق كتاب الله للقيام به والايمان بما انزل الله فيه

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ « الانعام مكية آية ٢٠ »

(التفسير) اعلم ان ظاهر هذه الآية يقتضي ان يكون علمهم بنبوة محمد

عليه السلام مثل علمهم بابنائهم وفيه سؤال وهو ان يقال المكتوب في التوراة والانجيل مجرد انه سيخرج نبي في آخر الزمان يدعو الخلق الى الدين الحق أو المكتوب فيه هذا المعنى مع تعيين الزمان والمكان والنسب والصفة والحلية والشكل فان كان الاول فذلك القدر لايدل على ان ذلك الشخص هو محمد عليه السلام . فكيف يصح ان يقال علمهم بنبوته مثل علمهم بنبوة ابنائهم وان كان الثاني وجب ان يكون جميع اليهود والنصارى عالمين بالضرورة من التوراة والانجيل بكون محمد نبياً من عند الله تعالى والكذب على الجمع العظيم لا يجوز لانا نعلم بالضرورة ان التوراة والانجيل ما كانا مشتملين على هذه التفاصيل التامة الكاملة لان هذا التفصيل اما ان يقال انه كان باقياً في التوراة والانجيل حال ظهور الرسول عليه السلام او يقال انه مابقيت هذه التفاصيل في التوراة والانجيل في وقت ظهوره لاجل ان التحريف قد تطرق اليهما قبل ذلك والاول باطل لان اخفاء مثل هذه التفاصيل التامة في كتاب وصل الى أهل الشرق والغرب ممتنع . والثاني أيضاً باطل لان على هذا التقدير لم يكن يهود ذلك الزمان ونصارى ذلك الزمان عالمين بنبوة محمد علمهم بنبوة ابنائهم وحينئذ يسقط هذا الكلام . والجواب عن الاول ان يقال المراد بالذين أتيناهم الكتاب اليهود والنصارى وهم كانوا أهلاً للنظر والاستدلال وكانوا قد شاهدوا ظهور المعجزات على الرسول (صلى الله عليه وسلم) فعرفوا بواسطة تلك المعجزات كونه رسولا من عند الله . والمقصود من تشبيه احدى المعرفتين بالمعرفة الثانية هذا القدر الذي ذكرناه (الرازي مجلد ٤ وجه ٢١ و ٢٢)

(ملاحظة) لقد احسن الامام باقراره ان التوراة والانجيل ما كانا مشتملين على وصف محمد ونسبه وشكله والزمان والمكان اللذين ينبغ فيهما وعليه يسقط الكلام انهم كانوا عالمين بنبوة محمد مثل علمهم بنبوة ابنائهم بقي جوابه المعتبر تفسيراً صحيحاً للآية وهو كما ترى يشتمل على ثلاث قضايا (الاولى) ان اليهود والنصارى كانوا أهلا للنظر والاستدلال (الثانية) انهم كانوا قد شاهدوا

ظهور المعجزات على الرسول (الثالثة) كنتيجة الاولين وهي فعرفوا بواسطة تلك المعجزات انه رسول الله فلننظر الى كل من هذه القضايا على حدتهافعلى الاولى أقول اذا كان أهل الكتاب في زمان محمد أهلاً للنظر والاستدلال فذلك ينافي نص الآية السالفة بانهم شبهوا بالحمار الحامل كتباً لا يدري ما فيها فعجباً كيف كانوا يعرفون محمداً كنبي الله ورسوله من كتابهمومع ذلك كانوا لا يدرون مافيه كما لا يدري البهيم ما في الكتب المحملة على ظهره . هل من اختلاف أعظم من هذا الاختلاف فأية الآيتين هي الصائبة وايتهما المخطئة . وبعد فأقول اذا كان أهل الكتاب أهلاً للنظر والاستدلال في كتابهم ولم يستدلوا به على محمد ينتج انهم ما عرفوه نبياً ورسولاً كمعرفتهم أبناءهم لان من هو الذي يعرف ابنه وينكره الاّ العادم الانسانية والمروءة وذلك لا يصح على الجمع الكثير . وعلى الثانية أقول من أين شاهد أهل الكتاب ظهور المعجزات على محمد وهو لم يأتِ بمعجزة ما كما قد رأيت في الباب الاول . فعارٌ على الامام أن يتلاعب هذا التلاعب الصبياني وما كان جديراً به مثل هذه المغالطة التي لا تجوز على من له أقل المام في دين الاسلام . وعلى الثالثة أقول انها ساقطة بسقوط الثانية لان اهل الكتاب ما رأوا لمحمد معجزات وبالتالي ما عرفوه انه نبي الله ورسوله وعليه يرىان القول يعرفونه كما يعرفون أبناءهم اما هو من باب الحدس والتخمين أو هو مبني على اقرار الذين كانوا أسلموا من اليهود كعبد الله بن سلام وكعب الاحبار وغيرهم الذين قال أحدهم وهو ابن سلام المذكور بحضرة عمر بن الخطاب اذ دار الحديث بخصوص مراد هذه الآية اني أعرف محمداً نبي الله ورسوله معرفة أعظم من معرفتي بابني فقال له عمر وكيف ذلك فقال أما ابني فلعل أمه خائنة به وأما محمد فأعرفه انه رسول الله فنهض عمر وقبله بين عينيه على ان اقرار المذكورين ليس هو اقرار أمة لاسيما وهم مسلمون الذين طبعاً ينتظر منهم مثل هذا القول الذي يختص بهم دون غيرهم ثم ان نص الآية الذين آتيناهم الكتاب الخ .. هو شهادة ثمينة على أمانة أهل

الكتاب على كتابه تعالى وحفظه كما أنزل وبعد فلقد اجاد الامام ببيانه على سبيل السؤال على اسلوب منطقي عدم معرفة اهل الكتاب محمداً كنبي الله ورسوله كمعرفتهم أبناءهم وشفافة النص على عدم مس اهل الكتاب كتابهم بتحريف ما ولان البيان المذكور غاية في المتانة وغير قابل الدحض ولما كان الامام كرجل مسلم يبغي التخلص منه كيف كان لجأ الى الجواب المذكور الذي ليس فقط لم يغنه شيئاً بل نتج منه نفس النتيجة من ذلك البيان وهي عدم معرفة أهل الكتاب محمداً كما يعرفون ابناءهم فكأن الامام رام به تعزيز ذلك البيان لا اضعافه فتأمل

فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ « يونس آية ٩٢ »

﴿ التفسير ﴾ ان في تفسير هذه الآية مسائل ووجوه مختلفة لا يسعني ذكر جميعها ولو على سبيل الاختصار فأذكر أهمها ملخصاً من ذلك زعم فريق ان هذا الخطاب ليس هو لذات النبي وغيرهم بل هو للنبي فمن قال انه للنبي قالوا ان الخطاب مع النبي في الظاهر والمراد غيره كالمثل المشهور اياك أعني واسمعي يا جاره وعلى ذلك وجوه مختلفة . والذين ذهبوا انه لغير النبي قرروا ان الناس في زمانه كانوا فرقاً ثلاثاً أي المصدقون به والمكذبون له والمتوقفون في أمره الشاكون فيه فخاطبهم الله بهذا الخطاب فقال ان كنت أيها الانسان في شك مما أنزلنا اليك من الهدى على لسان محمد فاسأل أهل الكتاب ليدلوك على صحة نبوته . فاختلفوا في المسؤول من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وعبد الله بن صوريا وتميم الداري وكعب الاحبار ومنهم من قال الكل سواء كانوا من المسلمين أو من الكفار فان قيل اذا كان مذهبكم ان هذه الكتب قد دخلها التحريف والتغيير فكيف

يمكن التعويل عليها قلنا انها انما حرفوها بسبب اخفاء الآيات الدالة على نبوة محمد عليه الصلاة والسلام فان بقيت فيها آيات دالة على نبوته كان ذلك من اقوى الدلائل على صحة نبوة محمد عليه الصلاة والسلام لانها لما بقيت مع توفر دواعيهم على ازالتها دلّ ذلك على انها كانت في غاية الظهور ومن الوجوه في التفسير على ان هذا الخطاب هو لمحمد وهو ان محمداً كان من البشر وكان حصول الخواطر المشوشة والافكار المضطربة في قلبه من الجائزات وتلك الخواطر لا تندفع الاّ بايراد الدلائل وتقرير البينات فهو تعالى أنزل هذا النوع من التقريرات حتى ان بسببها تزول عن خاطره تلك الوساوس. ثم ان قوله فان كنت في شك فافعل كذا وكذا قضية شرطية والقضية الشرطية لا اشعار فيها البتة بان الشرط وقع او لم يقع (الرازي مجلد خامس وجه ٢٨ و ٢٩)

وتفسيرها في البيضاوي هو فانه محقق عندهم ﴿اي أهل الكتاب﴾ ثابت في كتبهم على نحو ما القينا اليك من القصص والمراد تحقيق ذلك والاستشهاد بما في الكتب المتقدمة ... أو وصف أهل الكتاب بالرسوخ في العلم بصحة ما أنزل اليه أو تهييج الرسول وزيادة تثبيته لا امكان وقوع الشك له (مجلد أول وجه ٥٥٠)

وفي الجلالين فان كنت يا محمد في شك مما أنزلنا اليك من القصص فرضاً فاسأل الذين يقرأون التوراة من قبلك فانه ثابت عندهم يخبرونك بصدقه (جزء اول وجه ٢٠٥)

(ملاحظة) يظهر من تفسير العلماء لهذه الآية على الصورة المتقدمة كانهم شعروا بثقل هذه الآية على عواتقهم لقيامها أهل الكتاب حكماً لمحمد فحاولوا تأويلها على نوع يبقى فيه شرف نبيهم غير مثلوم على ان صراحة الآية التي جعلت مجالهم حرجاً للغاية دفعتهم الى كلام لايجدر بامثالهم كقول بعضهم ان هذا الخطاب هو في الظاهر مع النبي والمراد غيره اي للمتوقفين في أمره الشاكين به وهو في غاية البعد عن مراد الآية وبعضهم بل هو للنبي

كما رأيت فيما تقدم على انهم كيفما قلبوا المسألة واداروها تتجه كابرة الملاحين (الحك) نحو قطبي سلامة الكتاب وامانة أهله عليه . فاذا على افتراض ان الخطاب في الآية كان للشاكين في نبوة محمد فذلك يرتب على كل مرتاب في أمر محمد ان يستفتي من جهته أهل الكتاب وذلك عمل حسن فهل يستحسنه المسلمون وان كان الخطاب فيها لمحمد ليس الا وهو الصحيح فهو بيان سنيٌّ على امانة أهل الكتاب معاصري محمد على كتابهم لانه اذا كان لازالة الشك من قلب محمد فيما انزل اليه او لدفع تلك الخواطر المشوشة من قلبه أمر بسؤال قارئي الكتاب من قبله فذلك برهان ساطع على انهم أهل الكتاب الحق وانهم محافظون عليه كما أنزل وعلى كفايتهم لاعطاء الجواب الشافي لمحمد ولجلاء الاوهام بنور كتابهم وذلك لايدع محلا للقول على سبيل السؤال فان قيل اذا كان مذهبكم ان هذه الكتب قد دخلها التحريف والتغيير فكيف يمكن التعويل عليها ولامحلاً لذلك الجواب البارد الساقط وعجباً للامام كيف هكذا يتلاعب في أقواله تلاعباً لايليق بذي العلم والتعقل . اينسى او يتناسى ماتقدم من الآيات البينات وتفاسيرها في هذا الباب المبينة بكل وضوح وجلاء عدم تطرق التحريف الى الكتاب (التوراة والانجيل) وان مايسمى تحريفاً كنص الآية يحرفون الكلم عن مواضعه ليس هو سوى الكتمان والاخفاء او التأويل الفاسد ولي اللسان بالالفاظ وتعويجها عن استقامتها . وألا يعلم انه لو لم يكن في القرآن شهادة لامانة أهل الكتاب على كتابهم سوى هذه الآية التي نحن بصددها لكفى بها دليلا لهم على ذلك لانها سد محكم لكل فم يطعن بسلامة الكتاب او بعدم أمانة أهله عليه . اما قول بعضهم انه يراد بالذين يقرأون الكتاب من قبلك هم أولئك النفر الذي أسلم من اليهود فهو لقول ساقط كما بينا في الملاحظة على تأويل الآية السالفة وهو غير مقبول كما قد رأيت عند المتكلمين وأما القول في البيضاوي والجلالين ان محمداً أمر بسؤال الذين يقرأون الكتاب من قبله من نحو ما ألقى اليه من القصص فهو لضعيف لان الآية لاتبين ان المراد بذلك هو القصص التاريخية على نحو قصص التوراة

وتفسير الامام الرازي يستبان منه غير ذلك لانه يقال فيه ان السؤال هو لازالة الخواطر المشوشة من قلب محمد وهو أكثر موافقة للآية. وبعد اذا كان محمد أمر بسؤال أهل الكتاب للاستفادة منهم عن حقيقة ما أنزل اليه فيلزم ان اتباعه يجرون على هذا المجرى للتحقيق والاستشهاد لما في الكتب المتقدمة واذا وجب ذلك يكون الكتاب المقدس هو الحكم في العقائد والمذاهب وللفصل بين الحق والبطل فاين قول القائلين بتحريف الكتاب ايجهلون انه لو كان أهل الكتاب غير أمناء على كتاب الله لكان القول واسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك عبثاً لامحل له اذ يكون محمد أمر بسؤال اناس غير أمناء لعبوا بكتاب الله وكيف ينتظر من مثل هؤلاء ان يخلصوا الجواب لمحمد لكن الآية تعلن أمانة المسأولين وبراءة ساحتهم من تحريف او تغيير كلمة او حرف من كتابه تعالى

﴿ تذييل ﴾

اذقد اتضح من الآيات المتقدمة في هذا الباب مع تفسيرها من أشهر العلماء الراسخين سلامة كتاب الله التوراة والانجيل من التحريف نقول ان المسلم القائل بتحريفه قد نافى نص القرآن الصريح وأنكر بذلك صحة ما اعتقد انزاله من الله لان ليس الطعن في سلامة الكتاب الا طعن في شهادة القرآن له وهل من اتى بذلك يجوز ان يحسب مسلماً فليس من شأن المسلم الطعن على سلامة الكتاب انما ذلك شأن من ألقى القرآن ظهرياً وانخرط في سلك أعداء الوحي فعلى أهل الكتاب قراعه ثم بحسام الحجة والبرهان

وبعد أترضى يامسلم حينئذ لنفسك ان تحترم آيات القرآن دون تدبرها وان تتلوها بالخشية ولا تأخذ بها فان قلت بل اتدبرها وآخذ بها يقيناً وعملاً قلت اذا لزمك لا محالة اعتبار التوراة والانجيل الحالين كتاب الله الحق الذين لم يشبهما شائب التحريف ولم يمسهما تغيير وتبديل حسب مفاد الآيات القرآنية المتقدمة وعليه ما أجدرك باتخاذ الكتاب ودراسته بالوقار أناء الليل وأطراف النهار لاستقصاء مبانيه واستجلاء معانيه الكتاب الذي

منه أخـذ القرآن تلك القصص والاعـلام وهل يفوت ذهنك ان شهادة القرآن لسلامة الكتاب ليست الاّ ضرباً من الارشاد اليه وتشويقاً للوقوف عليه وان تلك القصص في القرآن أكبر داع للوقوف عـلى الكتاب التي أخذت منه كما اذا شوهد بعض الحجارة الكريمة بيد امرء ما وعلم انها من معدن كذا يكون ذلك داعياً لقصد ذلك المعدن لمعرفة ما فيه من نوع تلك الجواهر الثمينة والا يعد من الحماقة والبلادة الاغضاء عن ذلك . وعليه فلا حاجة للمسيحي ان يجهد نفسه مع المسلم ببيان عدم تحريف الكتاب والبينة على ذلك جلية في قرآنه لان من كان الشهود عليـه من أهله وخلانه لا حاجة الى تقديم شهود عليه من الخارج وكفى بالقرآن دليلاً لاهله عـلى سلامة الكتاب وان أهله كانوا في زمان محمد كما هم اليوم أمناء على كتابه تعالى يبذلون من دونه المهج متفقين عليه مختلفين فيما سواه

الباب الخامس

﴿ في الآيات الدالة على ان النبوة والكتاب خاصان ببني اسرائيل ﴾

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ « البقرة آية ٤٤ »

(التفسير) ملخصه انه تعالى يذكرهم بسالف نعمته عليهم تحريزاً من ترك اتباع محمد كأنه يقول ان لم تطيعوني لاجل سوالف نعمتي عليكم فاطيعوني للخوف من عقابي في المستقبل . أما قوله واني فضلتكم على العالمين ففيه سؤال وهو انه يلزم ان يكونوا أفضل من محمد عليه السـلام وذلك باطل بالاتفاق والجواب عنـه من وجوه (الوجه الاول) قال قوم العالم عبارة عن الجمع الكثير من الناس كقوله رأيت عالماً من الناس والمراد منه الكثير لا الكل وهذا ضعيف لان لفظ العالم مشتق من العلم وهو الدليل فكل ما

كان دليلاً على الله تعالى عالماً فكان من العالم وهـذا تحقيق قول المتكلمين العالم كل موجود سوى الله وعلى هذا لايمكن تخصيص العالم ببعض المحدثات (الوجه الثاني) المراد فضلتكم على عالمي زمانكم وذلك لان الشخص الذي سيوجد بعد ذلك وهو الآن ليس بموجود لم يكن ذلك الشخص من جملة العالمين حال عدمه لان شرط العالم ان يكون موجوداً والشيء حال عـدمه لا يكون من العالمين وعليه فلا يلزم من كون بني اسرائيل أفضل من العالمين في ذلك الوقت كونهم أفضل من محمد صلى الله عليه وسلم (الوجه الثالث) ان قوله واني فضلتكم على العالمين عام في العالمين لكنه مطلق في الفضل والمطلق يكفي في صدقه صورة واحدة فالآية تدل عـلى ان بني اسرائيل فضلوا على العالمين في أمر ما وهـذا لا يقتضي أن يكونوا أفضل من كل العالمين في كل الامور بل لعلهم وان كانوا أفضل من غيرهم في أمر واحد فغيرهم يكون افضل منهم فيما عدا ذلك الامر وفي ذلك مباحث مستطيلة نذكر منها ملخص بحثين (الاول) قال ابن زيد أراد به المؤمنين منهم لان عصاتهم مسخوا قردةً وخنازير على ما قال تعالى وجعل منهم القردة والخنازير وقال لعن الذين كفروا من بني اسرائيل (الثاني) قوله تعالى واني فضلتكم على العالمين يدل على انه رعاية الاصلح لا تجب على الله تعالى لا في الدنيا ولا في الدين . فان قيل لِمَ خصهم بالنعم العظيمة في الدنيا فهـذا يناسب ان يخصهم بالنعم العظيمة في الآخرة كما قيل اتمام المعروف خير من ابتدائه فلِمَ أردف ذلك بالتخويف الشـديد في قوله « واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم يبصرون» والجواب لان المعصية مع عظم النعمة تكون أقبح وافحش فلهذا حذرهم منها (الرازي مجلد أول وجه ٥٠٠ و ٥٠١)

وتفسيرها في الجلالين اذكروا نعمتي بالشكر عليها بطاعتي واني فضلتكم أي آباءكم على العالمين عالمي زمانهم (جز اول وجه ٩)

(ملاحظة) لا بأس من القول بان الله فضل بني اسرائيل على عالمي

زمانهم غير ان النتيجة المستخرجة من هذه المقدمة وهي وعليه لا يلزم من كون بني اسرائيل أفضل من العالمين في ذلك الوقت أفضل من محمد لا تفي بالغرض من وجهين (الاول) تفضيل بني اسرائيل على بني اسماعيل معاصريهم واذا كان الله خص بني اسماعيل بسيد الانبياء وحبيبه الخاص الذي ما خلقت السماء والارض الاّ لاجله كما يزعمون فبالضرورة تكون ذرية اسماعيل أفضل من ذرية اسرائيل (يعقوب) وعليه كيف فضل تعالى بني اسرائيل على بني اسماعيل وان قيل انما ذلك كان لانه لم يكن قد خرج بعد نبي من ذرية اسماعيل نقول ان الاقتصار على اعتبار الحال انما هو شأن الانسان لا شأن العليم الحكيم الذي قد استوى عنده الحال والاستقبال فاذا كان بقصده تعالى اقامة نبي من ذرية اسماعيل في مستقبل الايام أعظم وافضل كل انبياء اسرائيل فلا مشاحة انه يكون قد فضلهم على بني اسرائيل واذ ذاك فكيف يقول انه فضل بني اسرائيل على العالمين المدرج فيهم بني اسماعيل (الثاني) زعموا ان محمداً اول خلق الله أي انه كان نوراً ينقلب متسلسلا من اصلاب الطاهرين الى أرحام الطاهرات من آدم حتى أبيه عبد الله حتى أمه آمنة فعليه قد كان محمد موجوداً روحياً في ايام اسرائيل وذريته واذا كان الله فضل بني اسرائيل على بني اسماعيل عالمي زمانهم يلزم من ذلك انه تعالى فضلهم على محمد الذي كان وقتئذ في الاصلاب والارحام ولا مناص من ذلك

وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا « سورة الانعام آية ٨٤ »

(التفسير) ملخصه ووهبنا له اسحق لصلبه ويعقوب من بعده من اسحق فان قالوا لِمَ لم يذكر اسماعيل عليه السلام مع اسحق بل أخر ذكره عنه بدرجات قلنا لان القصود بالذكر ههنا انبياء بني اسرائيل وهم بأسرهم أولاد اسحق ويعقوب وأما اسماعيل فانه ما خرج من صلبه أحد الانبيا الاّ محمد (صلى الله عليه وسلم) ولا يجوز ذكر محمد عليه السلام في هذا المقام

لانه تعالى أمر محمد (صلى الله عليه وسلم) ان يحتج على العرب في نفي الشرك بالله بان ابراهيم لما ترك الشرك وأصر على التوحيد رزقه الله النعم العظيمة في الدين والدنيا ومن النعم العظيمة في الدنيا ان أتاه الله أولاداً كانوا أنبياء وملوكاً فاذا كان المحتج بهذه الحجة هو محمد عليه الصلاة والسلام امتنع أن يذكر نفسه في هذا المعرض فلهذا السبب لم يذكر اسماعيل مع اسحق (الرازي مجلد ٤ وجه ١٢١ و ١٢٢)

(ملاحظة انك ترى الامام باعتبار هذه المسئلة الخطيرة كرجل ضمن دائرة بناء عال لا منفذ لها يدور ملتمساً مخرجاً ولا يجد فيأخذ يقفز هنا وهناك محاولاً عبثاً الصعود الى أعالي الجدران فيعود منهوكاً من الاعياء بلا جدوى فانظر ان جوابه على سؤال السائل الذي هو لِمَ لم يذكر اسماعيل مع اسحق بل أخر ذكره عنه بدرجات ليس تخلصاً بل تملصاً عدمه خير منه لانه يعود على المتكلم بما لا يرضيه وذلك من وجهين كما سترى (الاول) ان السائل لم يقل لِمَ لم يذكر محمد مع موسى بل اسماعيل مع اسحق فأي محل اذا للجواب « ولا يجوز ذكر محمد في هذا المقام » ومن أين عرف حضرته ان المقصود من ذكر اسحق ويعقوب كهبة الله لابراهيم هو ذكر أنبياء بني اسرائيل وما دليل ذلك . وعلى فرض صحة مقالهِ هذا ان ذكرهما مقصود به ذكر الانبياء الذين سيأتون من نسلهما فذلك يوجب ذكر اسماعيل معهما كون ذكره بحسب مبدأ الامام ذكر النبي الذي سيكون منه (الثاني) اذا كان المقصود من ذكر اسحق ويعقوب معاً ذكر الانبياء الذين سيكونون من ذريتهما ينتج من ذلك ان عدم ذكر اسماعيل معهما ان لا نبي من ذريته فتأمل . وأما القول بامتناع محمد من ذكر نفسه لسبب كذا فهو لقول ساقط لانه لا يفهم من ذكر اسماعيل مع اسحق ذكر محمد فكأن الجهل والحسرة قادا القائلين الى اختلاق هذا السبب العديم الاعتبار

فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ

وَكُلاً جَعَلْنَا نَبِيًّا وَوَهَبْنَا لَهُم مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُم لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا « مريم آية ٤٩ »

﴿ التفسير ﴾ ملخصه ان ابراهيم لما اعتزل عشيرته واعتزل دينهم وبلدهم وسار الى حيث دعاه الله عوضه اولاد أنبياء. وجعله تعالى ابراهيم وولده وحفيده انبياء من أعظم النعم في الدنيا والآخرة ثم بين تعالى انه مع ذلك وهب لهم من رحمته اي وهب لهم مع النبوة ما وهب ويدخل فيه المال مع الجاه والاتباع والنسل الطاهر والذرية الطيبة ثم قال وجعلنا لهم لسان صدق علياً ولسان الصدق الثناء الحسن وعبر باللسان عما يوجد باللسان كما عبر باليد عما يعطى باليد وهو العطية واستجاب الله دعوته في قوله واجعل لي لسان صدق في الآخرين فصيره قدوة حتى ادعاه أهل الاديان كلهم (الرازي مجلد ٥ وجه ٨٠٩)

وتفسيرها في البيضاوي هو « وهبنا له اسحق ويعقوب » لعل تخصيصهما بالذكر لانهما شجرتا الانبياء اولانه أراد ان يذكر اسمعيل بفضله على الانفراد وكلا جعلنا نبياً وكلا منهما او منهم (بيضاوي مجلد ثاني وجه ٣٩)

وتفسيرها في الجلالين هو بان ذهب (ابراهيم) الى الارض المقدسة وهبنا له ابنين يأنس بهما وكلا منهما جعلنا نبياً ووهبنا لهم اي للثلاثة من رحمتنا المال والولد وجعلنا لهم لسان صدق علياً رفيعاً وهو الثناء الحسن في جميع أهل الاديان (جزء ثاني وجه ١٧)

وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ « سورة العنكبوت آية ٢٥ »

﴿ التفسير ﴾ ملخصه ان ابراهيم لما أتى ببيان التوحيد دفع عنه شر قومه

الكفار واثابه في الدنيا بالبنين والذرية والجاه والمال ثم قال وانه في الآخرة لمن الصالحين بين تعالى ثواب ابراهيم العاجل والآجل فقال « ووهبنا له اسحق ويعقوب » الخ ثم قال وفي الآية مسئلتان (احداها) ان اسمعيل كان من اولاده الصالحين فلمَ لم يذكر فيقال هو مذكور في قوله وجعلنا في ذريته النبوة ولكن لم يصرح باسمه لانه كان غرضه تبيين فضله عليه بهيئة الاولاد والاحفاد فذكر من الاولاد واحداً وهو الاكبر ومن الاحفاد واحداً وهو الاظهر (الثانية) ان الله تعالى جعل في ذريته النبوة اجابة لدعائه والوالد يستحبُّ منه ان يسوي بين ولديه فكيف صارت النبوة في اولاد اسحق أكثر من النبوة في أولاد اسمعيل فنقول . الله قسم الزمان من وقت ابراهيم الى القيامة قسمين والناس جمعين فالقسم الاول من الزمان بعث الله فيه انبياء فيهم فضائل جمة وجاؤا نترى واحداً بعد واحد ومجتمعين في عصر واحد كلهم من ورثة اسحق عليهم السلام ثم في القسم الثاني من الزمان أخرج من ذرية ولده الآخر وهو اسمعيل واحداً جمع فيه ما كان فيهم وأرسله الى الخلق كافة وهو محمد صلى الله عليه وسلم وجعله خاتم النبيين وقد دام الخلق على دين اولاد اسحق أكثر من أربعة آلاف سنة فلا يبعد ان يبقى الخلق على دين ذرية اسمعيل مثل ذلك المقدار (رازي مجلد ٦ وجه ٦٦٢ و ٦٦٣ و ٦٦٤)

وتفسيرها في البيضاوي « ووهبنا له اسحق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب » يعقوب نافلة حين آيس من الولادة من عجوز عاقر ولذلك لم يذكر اسمعيل « النبوة » فكثر منهم الانبياء « والكتاب » يريد به الجنس ليتناول الكتب الاربعة (مجلد ثاني وجه ٢٣٢)

(ملاحظة) لايخفى على القاريء العزيز ان الامام بتفسيره هذه الآية قد خالف قوله بعض المخالفة في تفسيره الآية على وجه ٨٠ لانه في تفسير تلك زعم ان سبب عدم ذكر اسمعيل مع اسحق هو لان المقصود بذكر اسحق ويعقوب فيها ذكر الانبياء ذريتهما الى آخر الكلام . وفي تفسير هذه يقول عن اسمعيل انه مذكور في قوله « وجعلنا في ذريته النبوة ولكن لم يصرح

باسمه » الى آخر القول فنقول كان الاجدر بالامام ان يقول هذا القول من الاول حتى لايقع في ورطة التناقض الذي لم يجده نفعاً من وجهين (الاول) لانه لو كان الامر كما ذكر لوجب ذكر اسمه مع ذكر اسم اخيه وابن اخيه حال كونه ابن ابراهيم البكر وهو الاكبر لا اسحق كما يتوهم الامام وما أسقم السبب الذي يذكره لعدم التصريح باسم اسمعيل مع اسحق لانه ان كان غرض الله تبيين فضله على ابراهيم بهيئة الاولاد والاحفاد واسمعيل ولد ابراهيم البكر الذي منه سيكون سيد الانبياء والمرسلين كما يزعمون لكان هو أحرى بالذكر اولاً ولكن فات حضرته ان السبب غير ما ذكر وهو حقاً سبب موجب لعدم ذكر اسمعيل مع اسحق ويعقوب وما أدراك ماهو هو لانهما شجرتا الانبياء حسبما يذكر البيضاوي ومن ذريتهما سيكون النسل المبارك الذي فيه تتبارك جميع قبائل الارض (انظر تك ٢٢ : ١٨ و ٢٦ : ٤ و ٢٨ : ١٤) وعليه فان اسحق وهب لابراهيم بوعد كما هو مقرر في التوراة والقرآن حيث بشر به الملائكة ابراهيم وسارة بخلاف اسمعيل الذي ولد له من سريته هاجر بدون وعد ولا تبشير (الثاني) لان القول « وجعلنا في ذريته النبوة قرينة للقول » ووهبنا له اسحق ويعقوب ولما كانت هذه النعمة مقرونة بتلك الهبة دل ذلك على جعلها في ذرية الموهوبين لابراهيم وما يزيد هذه الحقيقة جلاءً انه عند ذكر اسم اسمعيل لايقرنه بشيء من وعد النبوة كما في ذكر اسحق ويعقوب (انظر سورة الانبياء آية ٨٢ وسورة ص آية ٤٦)

ثم من أين عرف حضرة الامام ان الله سبحانه قسم الزمان الى قسمين نبويين الواحد زمان انبياء بني اسرائيل والثاني زمان نبوة محمد وان الله جمع في محمد ماكان في أولئك الانبياء من الفضائل وان دين أولاد اسحق دام اكثر من أربعة آلاف سنة الى آخر القول (راجع وجه ٨٣) فاقول ان هذا الزعم فاسد ووجه فساده هو (اولاً) لايخفى على القارئ النبيه ان عيسى المسيح هو من بني اسرائيل ذرية اسحق ويعقوب ودينه منتشر في كل الاقطار وعدد المتدينين به نحو ثلاثة أضعاف المتدينين بدين محمد وهو باقٍ نامٍ زاه أكثر من

كل دين على وجه الارض هذا عدا عن بقية أمة اليهود المتمسكة بمجرد شريعة موسى فاين تقسيمه اذاً (ثانياً) انه لم تجمع في محمد فضائل انبياء اسرائيل حتى ولا فضائل واحد من مشاهيرهم ولايضاح ذلك نأتي بذكر فضائل اثنين منهم وهما موسى وعيسى فموسى كلمه الله وجهاً لوجه واعطاه لوحي الشريعة على جبل حوريب مع علامات حضور الله عز وجل امام أعين شعب اسرائيل وعجائبه ومعجزاته معلومة ومحمد حسب زعمهم لم يكلمه الله بل كان جبريل يأتيه بالآيات من عند الله وهو لم يصنع معجزة ما وكلت العرب عبئاً من سؤاله آية كما قد رأيت في الباب الاول من هذا الكتاب فاين هو اذاً من فضائل موسى أما المسيح يسوع فقد زاد كثيراً في الفضل على موسى من حيث الولادة والنسب والقداسة والعمل . ولد من دون أب بشري ودعي في القرآن من روح الله وكلمته ولم يذكر له عيباً ولا له في القرآن استغفار او توبة وآياته ومعجزاته تفوق آيات موسى اذ أحيى الميت وابرأ الاكمه والابرص وخلق من طين حيا ومحمد ليس له مثل هذا النسب العجيب والصفة والمقدرة فلا هو عمل آية واحدة مما عمل المسيح وكان دأبه استغفار ربه عن ذنوبه حتى كان الجواب حسب القرآن قد غفرنا لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر فضلا عن ان عيسى كان رجلاً زاهداً لم يعرف امرأة ورجل حب وسلام ودعة وسكينة حيثما توجه كان ينثر البركات والخيرات على أولي الفاقة والبؤس فاين هو اذاً من فضائل المسيح .انه سهل على المرء ان يدعي كما يشاء ولكن الصعوبة في اثبات الدعاوي فالقائد الحكيم يعدل قوته قبل الحرب ويقدر العواقب قبل خوض المعامع ويبان ان الامام لم يعدل متانة أقواله هذه فيعرف منزلتها من القوة والضعف ولم يحسب ان أهل الكتاب قادرون على دحضها باوفر سهولة فاقتحم المسألة عن غير انتباه وتروّ واني لا أقدر أصدق ان مثل هذه التفاصيل الواهنة السخيفة تحوز القبول عند ذوي الاطلاع النبهاء من مسلمي هذا العصر الذين لاتنفق في سوقهم دعاوٍ لا أساس لها يعتمد عليه ولا برهان تقوم به .

وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ « سورة الانبياء آية ٦٩ و ٧٠ »

﴿التفسير﴾ خلاصته وهو قول ابن كعب وابن سعد وعباس وقتادة والغراء والزجاج ان ابراهيم عليه السلام لما سأل الله ولداً قال رب هب لي من الصالحين فأجاب الله دعاه ووهب له اسحاق اجابة لدعائه وأعطاه يعقوب من غير دعائه فكان ذلك نافلة على ما سأل كالصلاة النافلة زيادة على الفرض وعلى هذا النافلة يعقوب خاصة وكلاً جعلنا صالحين أي وكلاً من ابراهيم واسحق ويعقوب أنبياء ومرسلين عالمين بطاعة الله عز وجل مجتنبين محارمه وأوحينا اليهم فعل الخيرات وهذا يدل على انه سبحانه خصهم بالنبوة وكانوا لنا عابدين كأنه سبحانه وتعالى لما وفى بعهد الربوبية في الاحسان والانعام فهم أيضاً وفوا بعهد العبودية وهو الاشتغال بالطاعة والعبادة (رازي مجلد ٦ وجه ١٦٧ و و١٦٨ و ١٦٩)

وتفسيرها في البيضاوي وهبنا له اسحق ويعقوب نافلة وكلاً جعلنا صالحين « نافلة » عطية فهي حال منهما أو ولد ولد أو زيادة على ما سأل وهو اسحق فتختص بيعقوب ولا بأس للقرينة وكلاً يعني الثلاثة « جعلنا صالحين » بان وفقناهم للصلاح أو حملناهم عليه فصاروا كاملين (مجلد ثاني وجه ٨٧)

﴿ ملاحظة ﴾ ها لقد تكرر القول أربع مرار في أربع سور «ووهبنا» ابراهيم واسحق ويعقوب وقد تذيل كل من هذه الاقوال بذيل يتنوع عن سالفه ويزيده رونقاً وعظمة فذيل الاول كما رأيت وكلاً هدينا (الثاني) وكلاً جعلنا نبياً (الثالث) وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب (الرابع) وكلاً جعلنا صالحين . أفلا يدل ذلك دلالة راهنة ان غاية الله الحسنى هي في

نسل اسحق ويعقوب دون اسمعيل والا يوافق ذلك كل الموافقة ما ورد في التوراة من وعده تعالى لكل من ابراهيم واسحق ويعقوب على التوالي ويتبارك في نسلك جمع قبائل الارض ﴿ راجع وجه ٨٤ ﴾ وبعد ألا يخطر على بال المسلم النبيه لدى استغراق تأمله في هذه الآيات انه لو كان لاسمعيل عند ربه من الكرامة ما عنده لاسحق أو لو كانت الغاية فيهما متساوية لكان ذكره أولى في هذا المقام من ذكر يعقوب حفيد ابراهيم وعوض القول المكرر ووهبنا لهاسحق ويعقوب كان القول ووهبنا لهاسمعيل واسحق أو اسحق واسمعيل فما يا ترى علة هذا العدول عما هو طبيعي وعادي في هذه المسئلة . وهنا نرجع بالقاريء العزيز الى تفسير الأئمة كلمة ووهبنا له اسحق ويعقوب ونتظر في مفاد ذلك فعلى القول في الاولى يقول الامام فخر الرازي « ووهبنا له اسحق لصلبه ويعقوب بعده من اسحق » فأرجوك الوقوف هنيهة لتدبر هذه الكلمة . انظر الا تفيد كأن ابراهيم لم ينعم عليه من الله بولد من صلبه سوى اسحق مع ان اسمعيل ولده من صلبه فلمَ يا ترى لم يذكر لا مقدماً ولا مؤخراً مع اسحق بل حسب الحفيد هبة الله لابراهيم دونه كانه ليس بولده ألا ان ذلك دليل على ان غاية الله الصالحة هي في نسل اسحق ويعقوب دون نسل اسمعيل وفقاً لقوله تعالى في التوراة حين طردت سارة هاجر واسمعيل ولدها « في كل ما تقول سارة اسمع لقولها لانه باسحق يدعى لك نسل » تك ٢١ : ١٢

وعلى القول في الآية الثانية وجه ٨١ يقول ان ابراهيم لما اعتزل عشيرته .... وسار الى حيث دعاه الله عوضه أولاد أنبياء. وجعله تعالى ابراهيم وولده وحفيده أنبياء من أعظم النعم في الدنيا والآخرة فنثني على أمانة الامام بتفسير الآية هكذا على ان ليس في وسعه ان يتجاوز صراحتها فتأمل ان اسمعيل كما انه لا حظّ له في الحسبان مع أخيه وابن أخيه كهبة الله لابراهيم لا حظّ له أن يحسب معهم نبياً واذا كان كما يزعمون هو أبو سيد الانبياء حبيب الله لماذا لم يشرف بشيء من ذلك بل أغضي عنه كأنه ليس بموجود

وليس هو ابن ابراهيم. لِمَ يا ترى . وفي الجلالين وهبنا له ابنين يأنس بهما وكلاً منهما جعلنا نبياً فيا جلال الدين ألم يكن لابراهيم ولد من صلبه غير اسحق فلمَ قلت يأنس بهما تعني ابنه اسحق وحفيدهُ يعقوب ولم تقل يأنس بهما مع اسمعيل ولدهِ ألم يكن اسمعيل حياً حتى لم تشمله بذكر الانس لابيه مع أخيه أأهملته وفقاً للآية التي لا تكترث به . حسناً عملت . أما البيضاوي فيقول . لعلَّ تخصيصهما بالذكر لانهما شجرتا الانبياء لقد أحسن الامام أيضاً بهذا التأويل وان يكن تحت لفظة لعلَّ كأنهُ غب البحث لم يجد سبباً لتخصيصهما بالذكر الا هذا فعليه يقال لعلَّ عدم شمل اسمعيل معهما بالذكر هو لانه ليس شجرة أنبياء ولا هو أصل نبي عظيم لانه اذا كان شجرة أو أصل نبي أعظم كل الانبياء فيه جمع الله كل فضائلهم حسب تأويل الرازي (انظر وجه ٨٣) فهو مستحق ان يشتمل بالذكر مع اسحق ويعقوب وجدير بان يحسب في عداد هبات الله لابراهيم ولكن لكدر وغم حزبه لم يشرف بشيء من ذلك

وعلى القول في الآية الثانية وجه ٨٢ يقول الرازي ان ابراهيم لما أتى ببيان التوحيد دفع عنه شر قومه الكفار وأثابه في الدنيا بالبنين والذرية والجاه والمال فيريد بالبنين هنا حسب الآية اسحق ويعقوب كأنَّ ابراهيم لم يرزق من الله بنين سواهما فتأمّل . وعلى القول في الاية الرابعة وجه ٨٦ ان ابراهيم لما سأل الله ولداً قال رب هب لي من الصالحين فأجاب الله دعاءه ووهب لهاسحق اجابة لدعائه واعطاه يعقوب من غير دعائه فكان ذلك نافلة

وفي البيضاوي يعقوب نافلة عطية أو زيادة على ما سأل .وهنا ملاحظة ان كان ابراهيم حين سأل الله ولداً صالحاً « رب هب لي من الصالحين » كان له اسمعيل يتضح ان ابراهيم ما كان معتبراً اسمعيل كولد له صالح ولذلك لم يحصَ في عداد الموهوبين له من الله وان كان لم يكن له حينئذ اسمعيل وان اسمعيل ولد لابراهيم بعد اسحق كما أشار الرازي (وجه

٧٩) ولم يذكر بين اسحق ويعقوب كهبة الله لابراهيم بل استثني من ذلك كأنه لم يكن ولداً لابراهيم يستدلّ من ذلك كانّ لا خير فيه أو ليس فيه ولا في نسله بركة للعالم بل ذلك خاص بنسل اسحق ويعقوب الانبياء الصالحين وشجرتي الانبياء المباركين واني لاعجب من القول عن يعقوب انه نافلة لابراهيم كصلاة النافلة زيادة على الفرض، وهو حفيد ابراهيم لا ولده من صلبه وحسب المبدأ الطبيعي يقال هو هبة الله لاسحق لا لابراهيم على انه لو كان يعقوب أخو اسحق من ابراهيم ولد له بعد اسحق بدون طلب ابراهيم لصحّ القول واعطاه الله يعقوب زيادة على ما طلب اذ هو أي ابراهيم طلب ولداً فزاده الله آخر من صلبه . ولما لم يكن كذلك فلا يصح ان يقال عن يعقوب انه نافلة لابراهيم

ثم انه يوجد اختلاف بين بين الامامين الرازي والبيضاوي في تفسير الآية الخامسة والعشرين في سورة العنكبوت . وهي « ووهبنا له اسحق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب الخ » .. فان الرازي يقول في معرض الجواب عن مسئلة ان اسمعيل كان من اولاد ابراهيم الصالحين فلمَ لم يذكر (يعني في الآية) مع اسحق ويعقوب فيقال هو مذكور في قوله وجعلنا في ذريته النبوة ولكن لم يصرح باسمهِ والبيضاوي يقول في تفسيرها يعقوب نافلة حين آيس من الولادة من عجوز عاقر ولذلك لم يذكر اسمعيل « النبوة » فكثر منهم الانبياء والكتاب يريد به الجنس يتناول الكتب الاربعة (يعني التوراة والزبور والانجيل والقرآن) أما قوله فكثر منهم بصيغة الجمع يريد به الثلاثة ابراهيم واسحق ويعقوب وهو يوافق تفسير الرازي آية ٦٩ و ٧٠ من سورة الانبياء « وكلاً جعلنا صالحين اي وكلاً من ابراهيم واسحق ويعقوب انبياء مرسلين ... » وأوحينا اليهم فعل الخيرات وهذا يدلُّ على انه سبحانه خصهم بشرف النبوة فيتضح مما تقدم من قول البيضاوي في سوة العنكبوت والرازي في تفسيره الآية في سورة الانبياء ان القول « رجعلنا في ذريته النبوة » انه يعني بذريته اسحق ويعقوب ونسلهما لا

غير وهنا نسأل الامام الرازي اذا كان الله سبحانه خصّ ابراهيم وولده اسحق وحفيده يعقوب بشرف النبوة ألا ذلك يكون بياناً على ان اسمعيل لم ينعم عليه بهذا الشرف . بلى . وعليه فكيف عنّ لك ان تقول ان اسمعيل مذكور في قوله وجعلنا في ذريته النبوة حال كون غاية الآية هي اسحق ويعقوب . ألا ان ذلك من قبيل الخلط الذي لم يكن جديراً بمثلك . أما تأويل الامام البيضاوي لقول الآية « والكتاب » انه يريد به الجنس ليتناول الكتب الاربعة التي منها القرآن فهو فاسد من وجهين (الاول) اذا كان الذرية المجعول فيها النبوة هي اسحق ويعقوب ونسلهما حسبما تبين فيما تقدم يكون لا مراء المراد بالكتاب هو كتاب تلك الذرية لان الكتاب معطوف على النبوة فلا يصح تخصيص النبوة بذرية ابراهيم المشار اليها دون الكتاب المعطوف عليها اذاً خص بنو اسرائيل من الله بالكتاب كما بالنبوة (الثاني) ان الكتاب المعرف بأل هو الكتاب المشهور وهو التوراة والانجيل حتى دعي في القرآن اليهود والنصارى أهل الكتاب وهو ارث لبني اسرائيل أورثهم الله اياه دون غيرهم أي هو سبحانه جعل الانبياء الذين اوحى اليهم كلام الله وكتبوه وجمعوه الى كتاب من بني اسرائيل دون غيرهم ويؤيد ذلك قول القرآن ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بني اسرائيل الكتاب هدىً وذكرىً لاولي الالباب (سورة المؤمن آية ٥١) وان قيل ذلك يخرج الانجيل من الكتاب قلنا كلا لان يسوع المسيح وحواريه هم اسرائيليون من نسل اسحق ويعقوب ذرية ابراهيم المباركة فحاصل ما تقدم (١) ان النبوة والكتاب خاصان ببني اسرائيل (٢) ان اسمعيل بن ابراهيم من الجارية ليس هو هبة الله لابراهيم كأخيه وابن أخيه وليس هو نبي ولا جد نبي طبقاً لما تقدم من قوله تعالى في التوراة ان اسحق يدعى لك نسل وقوله لكلٍّ من ابراهيم واسحق ويعقوب وعداً وبنسلك تتبارك جميع قبائل الارض فما أحق اذاً القول في القرآن لبني اسرائيل واني فضلتكم على العالمين

وَقَالَ (ابراهيم) إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ رَبِّ . هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ . فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ . فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَهِيمُ . قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ . وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ . وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ . سَلَامٌ عَلَى إِبْرَهِيمَ . كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ . وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ » سورة الصافات آية ٩٥ ـ ١٠٩ »

﴿ التفسير ﴾ (خلاصته) اني ذاهب الى رب اي مهاجر الى أرض الشام مواضع دين ربي « هب لي من الصالحين » يعني بعض الصالحين يريد الولد فوهب له اسحق كما قال تعالى « ووهبنا له اسحق ويعقوب » وقيل ان هذا اشتمل على ثلاثة أشياء على ان الولد غلام ذكر وانه يبلغ الحلم وانه يكون حليماً واي حلم يكون أعظم من ولد حين عرض عليه ابوه الذبح قال ستجدني ان شاء الله من الصابرين (الى ان يقول) وفي تفسير آيات الذبح مسائل عديدة ونحن نكتفي بذكر اثنتين هما أشهرها (المسألة الاولى) في تفسير لفظة اني أرى في المنام اني أذبحك وجهان (الاول) قال السدي كان ابراهيم حين بشر باسحق قبل ان يولد له قال هو اذاً لله فقيل لابراهيم قد نذرت نذراً قف بنذرك فلما أصبح قال يابنيّ أرى في المنام اني اذبحك وروي عن طريق

آخر انه رأى ليلة التروية في منامه كان قائلا يقول له ان الله يأمرك بذبح ابنك هذا فلما أصبح تروى في ذلك الصباح الى الرواح أمن الله هذا الحلم ام من الشيطان فمن ثم سمي يوم التروية فلما أمسى رأى مثل ذلك فعرف انه من الله فسمى يوم عرفة ثم رأى مثله في الليلة الثالثة فهمّ بنحره فسمي يوم النحر فهذا هو قول أهل التفسير وهذا يدل على انه رأى في المنام مايوجب ان يذبح ابنه في اليقظة (الثاني) انه رأى في المنام انه يذبحه ورؤيا الانبياء عليهم السلام من باب الوحي وعلى هـذا القول فالمرئي في المنام ليس الا انه يذبح (المسألة الثانية) اختلفوا في ان هذا الذبيح من هو فقيل انه اسحق وهذا هو قول عمر وعلي والعباس بن عبد المطلب وابن مسعود وكعب الاحبار وقتادة وسعيد بن جبير ومسروق وعكرمة والزهري والسدي ومقاتل رضي الله عنهم. وقيل انه اسمعيل وهو قول ابن عباس وابن عمر وسعيد بن المسيب والحسن والشعبي ومجاهد والكلبي واحتج القائلون انه اسمعيل بحجج (منها) ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال انا ابن الذبيحين وقال له اعرابي يا ابن الذبيحين (اي اسمعيل وعبد الله أبو محمد) فتبسم فسئل عن ذلك فقال ان عبد المطلب لما حفر بئر زمزم نذر لله لئن سهل له أمرها ليذبحن احد ولده فخرج السهم على عبدالله فمنعه اخواله وقالوا له افد ابنك بمئة من الابل ففداه بمئة من الابل والذبيح الثاني اسمعيل (ومنها) نقل عن الاصمعي انه قال سألت ابا عمرو بن العلا عن الذبيح فقال ياأصمعي اين عقلك ومتى كان اسحق بمكة وانما كان اسمعيل بمكة والذي بنى البيت مع ابيه المنحر بمكة. (ومنها) الاخبار الكثيرة في تعليق قرن الكبش بالكعبة فكان الذبيح بمكة ولو كان الذبيح اسحق لكان الذبيح بالشام :

واحتج من قال ان ذلك الذبيح هو اسحق بوجهين (الاول) ان اول الآية وآخرها يدلُّ على ذلك اما أولها فانه تعالى حكى عن ابراهيم عليه السلام قبل هذه الآية انه قال اني ذاهب الى رب سيهدين واجمعوا على ان المراد منه مهاجرته الى الشام .

ثم قال فبشرناه بغلام حليم فوجب ان يكون هذا الغلام ليس الا اسحق ثم قال بعده فلما بلغ معه السعي وذلك يقتضي ان يكون المراد من هذا الغلام الذي بلغ معه السعي هو ذلك الغلام الذي حصل في الشام فثبت ان مقدمة هذه الآية تدل على ان الذبيح هو اسحق واما آخر الآية فهو أيضاً يدل على ذلك انه تعالى لما اتم قصة الذبيح قال بعده وبشرناه باسحق نبياً من الصالحين ومعناه انه بشره بكونه نبياً من الصالحين وذكر هذه البشارة عقيب حكاية تلك القصة يدل على انه تعالى انما بشره بهذه النبوة لاجل انه تحمل هذه الشدائد في قصة الذبيح فثبت بما ذكرنا ان اول الآية وآخرها يدل على ان الذبيح هو اسحق عليه السلام (والثاني) والحجة الثانية على صحة ذلك ما اشتهر في كتاب يعقوب الى يوسف عليه السلام من يعقوب اسرائيل الله ابن اسحق ذبيح الله ابن ابراهيم خليل الله فهذا جملة الكلام في هذا الباب وكان الزجاج يقول الله أعلم أيهما الذبيح والله أعلم وأعلم انه يتفرع على ماذكرنا اختلافهم في موضع الذبح فالذين قالوا الذبيح هو اسمعيل قالوا كان الذبح بمنى والذين قالوا انه اسحق قالوا هو بالشام وقيل ببيت المقدس والله أعلم (الرازي وجه ١٥٤ و١٥٥ و١٥٦)

(ملاحظة) انه لامر يدعو الى العجب العجاب كيف ان مسلمي ايامنا بعد كل هذا البيان يعتقدون ان الذبيح هو اسمعيل فاي ذي ادراك ونصفة لا يرى مما تقدم ان الذبيح هو اسحق وذلك من ثلاثة وجوه (الاول) ان هبة البنين لابراهيم اجابة لدعائه «رب هب لي من الصالحين» حسب تفسير آية ٦٩ و٧٠ من سورة الانبياء (انظر وجه ٨٦) انما كانت اسحق وبعده يعقوب وهو وفق الآية الاولى من الآيات التي اوردناها من سورة الصافات (انظر وجه ٩١) التي تذكر دعاء ابراهيم «رب هب لي من الصالحين» واجابة الله لدعائه «فبشرناه بغلام حليم» ثم تبين الآيات التالية لها ان هذا الغلام هو الذبيح ومن المعلوم انه لايذكر في القرآن ان ابراهيم بشر بغلام سوى اسحق فعليه لا محل للريب بكون الذبيح هو اسحق كما علم ذلك عظماء الصحابة وجاهروا

به . (الثاني) لان الذاهبين بان الذبيح هو اسحق هم اولى كثيراً بالتصديق من الذاهبين انه اسمعيل وذلك من ثلاثة وجوه (الاول) لان عدداً منهم كعمر والعباس وعلي وكعب الاحبار هم ركن الاسلام وعمدته اذ هم اكابر الصحابة المقربين الى محمد. فهم لاجرم ادرى بمعاني القرآن من خلفائهم ولاسيما الامام عمر المشهور بحسن الرأي واصابته الذي أجمع الصحابة على علو منزلته عند الله بعد محمد لما انه قد نزلت عدة آيات تبعاً لرأيه كآية منع محمد من الصلاة على من مات من المنافقين وآية الحجاب للنساء الى غير ذلك حتى قال له محمد ياعمر لو لم ابعث نبياً لبعثت انت « الثاني » لان عدداً من القائلين ان الذبيح هو اسمعيل هم بنو اولئك العظام ودونهم من كل الوجوه فليس من الاصابة ان يعتمد قولهم دون قول ابائهم واباؤهم هم الاقرب الى محمد ولزمته وعمدته المشهود لهم كما تقدم بالدراية وعلو الفضل (تنبيه) يلوح للقارئ العزيز من رأي هؤلاء المتآخرين كأنهم رأوا أهمية الاعتقاد بكون اسمعيل هو الذبيح ليكون ذلك في الاسلام اساساً للزعم بان المنحر كان بمكة ولانهم قليلون بالنسبة الى عدد القائلين ان الذبيح هو اسحق ودونهم فضلاً وعلماً بالدين راموا تعزيز رأيهم ورجحان كفتهم بما أوردوه من الحديث عن محمد والاعرابي (انظر وجه ٩٣) الذي كل عاقل مدرك يرى انه لو كان هذا الحديث قرين الصحة لما خفي على العباس عم محمد وعلى علي ابن عمه وصهره وعلى عمر بن الخطاب عمدته وصاحب سره والشديد الحرص على أقواله ونكته ولما كان لهم مجال للقول بخلافه. ثم وهو بعيد ان محمداً يقول اويدعي خلاف الآيات القرآنية من هذه الحيثية لان المسألة في القرآن خبرية لا شرعية فلا مدخل فيها للنسخ (الثالث) لان الاخذ بقول القائلين ان الذبيح هو اسمعيل هدم للاسلام لان المسلم الذي لايعتمد رأي كبراء الصحابة كالمشار اليهم في مثل هذه المسألة يهدم اركان الثقة بهم وذلك يؤدي لامحالة الى اعدام اليقين بالقرآن الذي هم كتبته وشهوده والمعوّل عليهم في جمعه ونشره فمن يرضى من المسلمين ذلك لنفسه واذا لم يرضوا به وجب عليهم الاجماع بان الذبيح هو اسحق وفقاً لآيات

القرآن ولمفهوم واقرار أولئك الصحابة المقربين واذا أجمع المسلمون على ان الذبح هو اسحق وجب اجماعهم على ان المنحر بالشام واذا كان المنحر في الشام في ارض بيت المقدس حيث افتدى الله اسحق بالكبش وجب اذا رأوا النحر سنوياً لله ان يأتوا ذلك في بيت المقدس او على أحد جباله لاجبال مكة

(الثالث) ماقيل في تأويل آية ٤٣ من سورة ص وهو « واذكر عبدنا ابراهيم يامحمد » صبر ابراهيم حين ألقي في النار وصبر اسحق للذبح وصبر يعقوب حين فقد ولده وذهب بصره وهو وفق ماقيل انه اشتهر من كتاب يعقوب الى يوسف ابنه (راجع وجه ٨٢) وتأويل الآية أعلاه هو للامام الرازي كما سترى فيما يأتي . فعجباً لهذا الامام المشهور في عصره بالفضل والشرح للقرآن كيف بعد تأويله الآية هكذا يقول بعد ذكره الحزبين وكلاهما في مسئلة ايهما الذبح من ولدي ابراهيم . والله أعلم (انظر وجه ٨٢) نعم الله عز وجل أعلم كل عليم غير ان هذه الكلمة من عالم امام نظيره بعد البيان كون الذبح هو اسحق من آيات القرآن وأكابر الصحابة ومن تفسيره هو للآية المشار اليها يعدّ له التواءً ومثالا للريب بكل حقيقة .

وأما جواب أبي عمرو للاصمعي يا أصمعي أين عقلك ومتى كان اسحق بمكة وانما كان اسمعيل بمكة والذي بنى البيت مع أبيه والمنحر بمكة فليس هو بجواب ولا حجة بل هو دليل على صغر عقل المجاوب فلا عبرة له عند أولي الدراية والتعقل . وافتكر ان الاصمعي بالنظر الى قوة عقله وحدّة ذكائه لم يعر هذا الجواب الفارغ شيئاً من الاعتبار واذا كان سكت فما ذلك منه الاّ مراعاة للميل العام كدأب كثيرين من الشعراء والادباء الذين يبتغون الخواطر مراعاة للمصلحة . وبعد فانه مشهور ان محل النحر والذبح لله كان بيت المقدس في أورشليم من أيام داود النبي الى أن خربت المدينة والهيكل بأيدي الرومانيين بعد المسيح بنحو أربعين سنة في نفس المكان الذي فيه قدم ابراهيم ابنه ليذبحه لله طوعاً لامره تعالى فافتداه الله بكبش كما نرى في التوراة (انظر تك ٢٢ : ١ ــ ١٥) وما يضحك الثكلى اتخاذ قرن

كبش معلق في الكعبة دليلاً على ان الذبح كان اسمعيل الذي على زعمهم كان متوطناً مكة فانع به من دليل كأن لا كبش في الحجاز الاّ الكبش الذي قدمه ابراهيم بدلا من ابنه ولا قرون الاّ قرونه . انه لمن المعلوم ان حرم مكة هدم بعد اسمعيل مرة أو مرتين ثم بني أوسع وأجمل فهل بقي قرن ذلك الكبش معلقاً أو بدل بقرن آخر على اني لا أقدر ان أصدق ان المسلمين ذوي التعقل كالامام الرازي وغيره يعيرون مثل هذه الحكاية شيئاً من الاعتبار وما يريك أكثر فأكثر خرافة الحكاية هو ان ابراهيم أمر بتقديم ابنه في قفر خال من الانس لا في مسجد معمور محاطاً بالناس

وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ . إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ وَاذْكُرْ إِسْمَعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ

« سورة ص آية ٤٣ ـ ٤٦ »

(التفسير) ملخصه واذكر عبادنا ابراهيم يا محمد صبر ابراهيم حين ألقي في النار وصبر اسحق للذبح وصبر يعقوب حين فقد ولده وذهب بصره « اولي الايدي والابصار » أي أولي الاعمال والمعارف والادراك « وانا اخلصناهم بخالصة ذكر الدار » فيها مسائل ووجوه (الاول) المراد من انهم استغرقوا في ذكر الدار الآخرة وبلغوا في هذا الذكر الى حيث نسوا الدنيا (الثاني) المراد حصول الذكر الجليل الرفيع لهم في الدار الآخرة (الثالث) المراد انه تعالى ابقى لهم الذكر الجميل في الدنيا وقبل دعاهم في قوله واجعل لي لسان صدق في الآخرين ثم قال « واذكر اسمعيل واليسع وذا الكفل وكل من الاخيار وهم قوم آخرون من الانبياء تحملوا الشدائد في دين الله » (الرازي مجلد سابع وجه ٢٠٩ و ٢١٠)

وتفسيرها من البيضاوي هو أولي القوة في الطاعة والبصيرة في الدين أو

أولي الاعمال الجليلة والعلوم الشريفة فعبر بالايدي عن الاعمال وبالابصار عن المعارف بيضاوي مجلد ثاني وجه ٢٧٤

(ملاحظة) ان الآية المتقدم ذكرها هي الآية الخامسة التي تخيل للقارئ العزيز كأن اسمعيل ليس من عائلة ابراهيم حال كونه ولده من صلبه اذ لم يحصَ فيها مع ابراهيم واسحق ويعقوب بالذكر ولا نعت معهم بالفضل وذلك جدير بان يأتي بالمسلم النبيه الى نقطة العجب والحيرة كيف ان الله تعالى يأمر محمداً بذكر كل من ابراهيم واسحق ويعقوب ناعتاً اياهم بفضل العلم والعمل دون جده اسمعيل. لِمَ يا ترى . فتأمل يا قارئ القرآن وأدهش ان في الآيات الاربع السالفات ذكر اسحق ويعقوب كهبتي الرحمن لابراهيم بدون التفات الى اسمعيل كأنه لم يكن . وعبثاً ما حاول بعض الشراح خرط ذكره ولو بمعنى بعيد في ذرية ابراهيم المجعول فيها من لدنه تعالى النبوة والكتاب كما قد رأيت فيما مر من الملاحظات على تأويل تلك الآيات وفي هذه الآية نعت ذانك النبيان مع ابيها نعتين لم ينعت بهما سواهما « أولي الايدي والابصار» أما اسمعيل فهو محصى من جملة الاخيار ان كان هو المراد في آية ٤٦ على انه يخال للقارئ المدقق من الآية وتأويلها كأن المذكور فيها ليس هو اسمعيل بن ابرهيم بل آخر لاشماله بالذكر مع اليسع وذي الكفل ولايخفى ان المدة بين اسمعيل بن ابرهيم واليسع نحو الف واربع سنين (اي من ولادة اسمعيل الى بعثة اليسع نبياً) انظر في التوراة (تك ١٦ : ١٥ و ١ مل ١٩ : ١٩) فيلوح لك من ذلك ان القرآن يريد في هذه الآية ذكر اسماعيل آخر معاصراً لا ليسع والا فذكر اسماعيل بن ابراهيم مع اليسع في الآية في غير محله ولو ذكر مع يوسف بن يعقوب لكان ذلك أقرب للفهم انه ابن ابراهيم . امامن جهة التأويل فيقول عن اسمعيل واليسع وغيرهم « هم قوم آخرون من الانبياء تحملوا الشدائد في دين الله . فيرى ان هؤلاء الشراح لو اعتقدوا ان اسمعيل المذكور في الآية هو ابن ابرهيم لاشاروا الى نسبه لابرهيم لاسيما وان ذكر اسمه مقارن لذكر أسماء ابرهيم واسحق ويعقوب ولما ضموه مع قوم آخرين الامر

الذي يشف عن بعد عصر هؤلاء القوم عن عصر ابراهيم وبنيه. فسواء كان المذكور في الآية ابن ابراهيم او غيره ليس لذلك أهمية باعتبار المسألة التي نحن في صددها ويكفي للقارئ النبيه ان الآية تذكر محمداً بهؤلاء الاباء الثلاثة مستثنية من ذلك جده اسمعيل كانه غير مستحق ان يحصى بينهم. أفلا يشف ذلك على ان بركة الله للعالم هي في ذرية ابرهيم من اسحق ويعقوب دون اسمعيل مصداقاً لوعده تعالى المكرر لكل منهم بدوره « وفي نسلك تتبارك جميع قبائل الارض » (راجع النظر في وجه ٨٢)

تذييل

لقد بدا لنا من الآيات التي أوردناها في هذا الباب ومن تأويلها ثلاثة أمور كلية . (الاول) ان بني اسرائيل أفضل العالمين اذ أقام الله تعالى منهم الانبياء والمرسلين الذين اعظمهم وسيدهم المسيح كلمة الله وابنه الوحيد المدعو في القرآن كلمة من الله وروح منه الذي أتى بالبركة السنية للعالم اتماماً لوعده تعالى المذكور أعلاه. وخصهم بكتابه العزيز نوراً وهدى لمن اهتدى وتفصيلا لكل شيء (الثاني) ان غاية الله العظمى من جهة البشر هي في نسل ابراهيم أعني اسحق ويعقوب هبتي الله له (الثالث) ان الذبح لله من اولاد ابراهيم هو اسحق فينتج من ذلك نتيجتان (الاولى) ان ليس لاسماعيل وذريته نصيب في النبوة والكتاب فلا نبي مرسل الا من بني يعقوب ولا كتاب لله الا كتابهم (الثانية) ان محل الذبح لله هو في أورشليم لا في مكة .

ثم ان وجود مثل هذه الآيات في القرآن يقضي باعجب العجب لما انها ترى القارئ ببيان لامزيد عليه عدم حيثية اسمعيل وذريته عند الله بل انما كل الحيثية والبركة لاسحق ويعقوب وآلهما كأن اسمعيل عدم في عدم. وطبيعي ان هذه الآيات تأتي لذهن المسلم الحر بالسوالات الآتية لِمَ يا ترى لم يدرج اسم اسمعيل مع اسحق ويعقوب كهبة الله لابراهيم أليس كل البنين هبة للآباء فما منع ذكر اسمعيل مع اخيه كهبة الله لابيه بل نقل الذكر من اسحق الابن الى يعقوب الحفيد كابن ولم يلتفت الى اسمعيل كانه ليس ابن ابراهيم او

كانَّ لاخير فيه يؤهله الى مثل هذه التجلة . هل يمكن ان يكون ذلك بدون داعٍ كلا وما هوهذا الداعي ليت شعري واني لاأرى في تأويل علمائنا لهذه الآيات وجوابهم على مثل هذا السؤال مايروي الغليل فليس هو سوى مواربة ومحاولة تشف عما في صدورهم من الضيق والحصر اللذين القمهما فيه هذه الآيات ولِمَ لما افرد اسمعيل بالذكر لم يقل وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب كما قال عن ذرية ابراهيم تبعاً لذكر اسحق ويعقوب وعلى الاقل وجعلنا في ذريته نبوة وكتابا ولِمَ لم يدرج اسمه مع اسم ابيه ابراهيم وأخيه وابن أخيه عند ما حض محمداً على ذكرهم كاولي الايدي والابصار أكان خالياً من العلم والعمل حتى لم يكن أهلا لشمله بالذكر معهم فكيف هو اذاً نبي الا ينتج من ذلك ان اسمعيل ليس كاخيه اسحق ولا كابن اخيه هبة الله لابيه ولاهو كابيه واخويه من أولي الايدي والابصار (اي المعارف والاعمال) انه ليس بنبي ولا وليّ فما بال القرآن اذا يدعوه نبياً بقوله «واذكر في الكتاب اسمعيل انه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبياً » (سورة مريم آية ٥٤) (ان كان هذا المذكور هو اسمعيل بن ابراهيم لان ذكره بين موسى وادريس يرينا انه ابن ابراهيم) وان كان هكذا صادقاً ورسولا نبياً فيكون هبة عظيمة من الله لابيه فلِمَ اذا لم يقل عنه ذلك حين ذكر تعالى هبة البنين لابراهيم بل اقتصر على اسحق وابن اسحق كوحيدين لابراهيم فحقاً ان في المسئلة اشكالا لم يحلّ ولن يحل ... اما نحن فنقول حقاً لا برهان أعظم واوسع وأوضح مما تقدم في القرآن على تخصيص بني اسرائيل باسنى النعم والبركات وكون منهم يجري مجرى الحياة الفياض لادواء الامم كافة وذو البصيرة اذا تدبر مثل هذه الآيات في القرآن وقابلها على أمثالها في التوراة لايرى ان نسل ابراهيم واسحق ويعقوب بركة الامم بل يسوع المسيح كلمة الله محيي الاموات والقلوب واي حاجة يأتي تحتاجها أمم الارض مثل احياء قلوبهم وانفسهم فاذا كان عيسى المسيح المدعو في القرآن روح الله بمعنى انه يحيي الاموات والقلوب حسب تأويل الامام البيضاوي (مجلد اول وجه ٢٩١) وحسب الرازي سبباً لحياة الخلق

في أديانهم (رازي مجلد ثالث وجه ٥١٢) وكان نسبه اسرائيلياً من ذرية يعقوب أفلا تكون صادقة كلمة الله في التوراة ليعقوب « وبنسلك تتبارك جميع أمم الارض » (تك ٢٨ : ١٤) فعليه اذا تباركت أمة من الامم على الارض بركة تحيي منها القلوب والاجساد فانما تتباركها بنسل يعقوب الذي هو المسيح فتأمل

الباب السادس

في الآيات اللامحة الى لاهوت المسيح

إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ ٱللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ . وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّالِحِينَ « آل عمران آية ٤٤ و ٤٥ »

(التفسير) ملخصه « كلمة منه » هو لان السبب المتعارف كان مفقوداً في حق عيسى عليه السلام وهو الاب فلا جرم كان اضافة حدوثه الى الكلمة اكمل وأتم فجعل بهذا التأويل كأنه نفس الكلمة كما ان من غلب عليه الجود والكرم والاقبال يقال فيه على سبيل المبالغة انه نفس الجود ومحض الكرم وصريح الاقبال فكذا ههنا « المسيح » في ذلك مذاهب نأتي بملخص بعضها . منها انه مسح من الاوزار والآثام ومنها انه كان ممسوحاً بدهن طاهر مبارك يمسح به الانبياء ومنها انه مسحه جبريل بجناحه وقت ولادته ليكون ذلك صوناً له عن مس الشيطان ومنها لانه خرج من بطن أمه ممسوحاً بالدهن قال أبو عمر بن العلاء المسيح الملك « وجيهاً في الدنيا والآخرة » في الدنيا بسبب النبوة وفي الآخرة بسبب علو المنزلة عند الله

تعالى وأيضاً فهو وجيه في الدنيا بسبب انه يستجاب دعاؤه ويحيي الموتى ويبرئ الاكمه والابرص بسبب دعائه ووجيه في الآخرة بسبب انه يجعله شفيع امته ويقبل شفاعته فيهم (ثالثاً) انه وجيه في الدنيا بسبب انه مبرأ من العيوب التي وصفه اليهود بها ووجيه في الآخرة بسبب كثرة ثوابه وعلو درجته عند الله تعالى ثم ومن الاسئلة في كلة منه هذا السؤال وهو الضمير في قوله اسمه عائد الى الكلمة وهي مؤنثة فلمَ ذكر الضمير. الجواب لان المسمى بها مذكر (رازي مجلد ٣ وجه ٦٧٦)

وتفسيرها في الجلالين « الملائكة » جبريل « وكلمة منه » اي ولد وجيهاً في الدنيا والآخرة في الدنيا بالنبوة وفي الآخرة بالشفاعة والدرجات العلى ومن المقربين عند الله « ويكلم الناس في المهد اي طفلا قبل وقت الكلام» (جزء أول وجه ٦٠)

(ملاحظة) لا يرى القارئ النبيه في تفسير كلة منه والجواب على ضميري المؤنث والمذكر في الآية اصابة المرمى من وجهين (الاول) انه لا يشتم من الآية رائحة الاضافة الى الكلمة حتى يسوغ للامام القول كان اضافة حدوثه الى الكلمة فيظهر ان حضرته أتى بها من قبيل التخمين والحدس واذا كان السبب المتعارف مفقوداً في عيسى وهو الاب وكان الوحي من الله عنه انه كلة منه ودل ذلك على أبوية الله له على نوع يجل ويسمو جداً عن أبوية الانسان لابنه ففي الآية لمحة باهية الى هذا الامر السري لا اضافة الامام المذكور (الثاني) لا يعتبر جوابه لان المسمى بها مذكر جواباً لذلك السؤال لانه اذا كان الضمير في اسمه عائداً الى الكلمة فالكلمة تكون ذاتاً ولا فرق ان كان المسمى بها مذكراً أو مؤنثاً فلو قيل « ان الله يبشرك بكلمة منه اسمها مرثا » يبقى المعنى هو هو ان تلك الكلمة العائد اليها ضمير المسمى هي ذاتاً لتكون البشارة ابانت ذاتيتها واذا كانت هذه الكلمة المبشر بها ذاتا من الله فما تكون ليت شعري هذه الذات . من المعلوم ان المسلم المتعصب لا يرى لزوماً للبحث في هذه القضية النسبية بحثاً قانونياً لما

يخال له فيها من الالماع الى لاهوت المسيح بل يرى الاغضاء عنها أولى الامر غير الجدير بذي التعقل فأملنا كبير بالعاقل الحر الضمير ان لا يخطأ هذه النقطة الهامة قبل أن ينظر اليها من كل وجوهها ويمنحها حقها من التأمل والمقابلة مع ما ماثلها من آيات انجيل الله لان من شأن العاقل الحر عدم الاكتفاء بالتأويل البعيد ولو كان المأول من ذوي العلم والمقام بل لابد له من استعمال عقله في تقدير الشيء حق قدره باعطائه حقه من التأمل والبحث والوزن والمقابلة . فانظر ان الامام لم يرَ في هذه الآية من بابها بل كمن يروم التخلص من نقطة صعبة كهذه أوّل الآية تأويلا موافقاً لعقيدة الاسلام غير مبال بما هو عليه من الوهن والبون الشاسع بينه وبين محجه الصواب أو ان التعصب سدل على عقله حجاباً كثيفاً فلم يرَ نور معناها البهي

أما المذاهب المختلفة بشأن اسم المسيح فتبين عدم بلوغ القوم حقيقة معناه والمراد به وما ذلك الا لخلو القرآن من الاشارة الى معنى هذا الاسم وذلك يوجّه عقل القارئ النبيه الى سؤالين مهمين ﴿ الاول ﴾ لِمَ امتاز عيسى بن مريم بهذا الاسم الذي لم يسمَّ به سواه من الانبياء والمرسلين ﴿ الثاني ﴾ هل في شخص عيسى أمر يفوق شخصية الانبياء والمرسلين أهله لهذا الاسم ﴿المسيح﴾ ومن يقدر على اعطاء الجواب الصحيح لهذين السؤالين غير كتاب الله التوراة والانجيل وهو ان الله مسحه بالروح القدس ملكاً على اسرائيل وكل الامم « وأقامه رباً ومسيحاً » وانه استحق هذا الاسم وامتاز به لامتيازه في شخصيته عن كل ما سواه من أنبياء الله كونه من الله ابنه وكلمته به الحياة الابدية فكما امتاز في القرآن بكونه كلمة من الله وروح منه امتاز بلقب المسيح كسيد العالمين وملكهم فالاولى علة الثانية والثانية دلالة على معنى الاولى فتأمل

ويعجبك أحد هذه المذاهب « لانه خرج من بطن أمه ممسوحاً بالدهن فهل في احشاء مريم دهن واذا كان هذا الشخص العجيب في حاجة الى مسحة

الدهن كبعض ملوك اسرائيل فايسر ان يفعل له ذلك على أثر ولادته واذا كان على زعمهم مسح في بطن أمه فلا يكون ذلك بدهن بل بالروح القدس بمناسبة ماجاء في الانجيل حين بشرت أمه به « الروح القدس يحل عليك وقوة العلي تظللك فلذلك أيضاً القدوس المولود منك يدعى ابن الله» (لو١ : ٣٥) واذا كان عيسى ابن مريم مسح وهو في بطن أمه فذلك من جملة الدلائل على كونه شخصاً فوق العادة يسمو جداً عن انبياء الله ومرسليه كافة الذين لم يقل عن أحدهم شيء من مثل ذلك اما (تأويل) « وجيهاً في الدنيا والآخرة » وهو وجاهته في الدنيا بسبب النبوة وبسبب انه يستجاب دعاؤه ويحيي الموتى الخ .. وبسبب انه كان مبرأ من العيوب التي وصفه اليهود بها ووجاهته في الآخرة بسبب علو منزلته او درجته عند الله تعالى وانه يجعله شفيع امته المحقين فهو لتأويل مقبول وذلك يشف أيضاً عن امتياز المسيح العالي عما سواه من الملائكة والبشر فانظر ان وصف المسيح بهاتين الآيتين النيرتين اشبه بحلقات سلسلة ذهبية كل حلقة منها تلقي نوراً على ما قبلها وتزيد معناها جلاء ووضوحاً وهي جملة تبين غرابة المسيح كلمة الله انه نبي لا كالانبياء ومسيح لا كالمسحاء بل هو المسيح العجيب الغريب الولادة المقتدر والوجيه في الدارين فتأمل

إِذْ قَالَ اللّٰهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْانْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ

مُبِينٌ « سورة المائدة آية ١١١ »

(التفسير) فيه وجهان (الاول) ان الروح هو جبريل والقدس هو الله كأنه تعالى اضافهُ الى نفسه تعظيماً له (الثاني) ان الله خصَّ عيسى بالروح الطاهرة النورانية المشرقة العلوية الخيرة « تكلم الناس في المهد وكهلا » اما كلام عيسى في المهد فهو قوله اني عبد الله أتاني الكتاب وكذا في حال الكهولية من غير ان يتفاوت كلامه في هذين الوقتين وهذه خاصية شريفة كانت حاصلة له وما حصلت لاحد من الانبياء قبله ولا بعده (رازي مجلد ثالث وجه ٦٩١)

(ملاحظة) لم يبين لنا الامام في تفسيره هذه الآية أي الوجهين صواب وأيهما خطأ أو أيهما أقرب الى الصواب الامر الجدير بالمفسر . انا نرى الوجه الاول خطأ باعتبار القرآن وخطاءه ظاهر من وجهين (الاول) انه لم يقل في القرآن لمحمد مثل ذلك حال كونه يقول له في القرآن «نزله روح القدس من ربك بالحق « نزل به الروح الامين على قلبك » انظر سورة النحل آية ٩٩ و ١٠٠ والشعراء آية ١٨٩ و ١٩٠

(الثاني) ان المسيح سمي في القرآن روح من الله ومن تفسير ذلك انه روح من الارواح الشريفة العالية القدسية أضافه تعالى الى نفسه لاجل التشريف والتعظيم فبقي ان المراد بقول الآية ايدتك بروح القدس هي تلك الروح العالية أو هي التي خص بها حسب الوجه الثاني على ان في ذلك اشكال لدى أهل القرآن لا أرى لهم سبيلا الى حله وهو اذا كان المسيح روحاً من الله أي من الارواح الشريفة العالية القدسية شرفها الله وعظمها باضافتها الى نفسه فهي لا مراء روح القدس فكيف اذ ذاك يخاطبه اني أيدتك بروح القدس هل يؤيد روح القدس بروح القدس وهل المسيح وهو تلك الروح السامية المقام عند الله تحتاج الى تأييد روح دونها تقدرها على عمل الآيات المعجزات كلاَّ بل ان هذا التأييد انما يجوز على من ليس هو من

روح الله

ثم ان هذه الآية وتفسيرها أعظم دليل على سمو المسيح ورفعة شأنه فوق كل الانبياء والمرسلين لما انه تعالى خصه بالروح الطاهرة النورانية المشرقة العلوية الخيرة فنسأل المسلم المخلص ما هذه الروح التي خص بها المسيح من الله أذات هي أم نعمة فان قال نعمة قلنا له وما تلك النعمة أوحيٌ هي أم قداسة فان قال هي نعمة الوحي أو التقديس نقول بطل القول ان المسيح خص بها لانعامه بمثلها على بقية أنبيائه ومرسليه ويكون عبثاً القول « روح منه » وان قال بل ذات فيكون قد وافق معتقد أصل الانجيل الذي هو ان المسيح ذو طبيعتين الواحدة من الله والاخرى من الانسان فأنّى له الخروج من هذه الدائرة والسبيل الى حلّ هذا المشكل

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُوا ثَلاَثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً « سورة النساء آية ١٦٨ »

(التفسير) (خلاصته) لا تغلوا في دينكم لا تفرطوا في تعظيم المسيح « وكلمته » المعنى انه وجد بكلمة الله وامره من غير واسطة ولا نطفة « وروح منه » ففي ذلك وجوه شتى منها (أولا) انه من نفخة جبريل . والمراد من قوله منه التشريف والتفضيل كما يقال هذه نعمة من الله (الثاني) انه كان سبباً لحياة الخلق في أديانهم ومن كان كذلك وصف بانه روح . (الثالث) روح منه اي رحمة منه فلما كان عيسى رحمة من الله على الخلق من حيث انه كان يرشدهم الى مصالحهم في دينهم ودنياهم لا جرم

سمي روحاً منه (الرابع) قوله روح أدخل التنكير في لفظ روح وذلك يفيد التعظيم فكأن المعنى وروح منه أي روح من الارواح الشريفة العالية القدسية وقوله منه اضافة لذلك الروح الى نفسه لاجل التشريف والتعظيم ومع ذلك فهو رسول من رسل الله فآمنوا به كايمانكم بسائر الرسل ولا تجعلوه الهاً (رازي مجلد ثالث وجه ٥١٢ و٥١٣)

وملخص تفسيرها في البيضاوي « وكلمته ألقاها » اوصلها اليها وحصلها فيها « وروح منه » وذو روح صدر منه لابتوسط مايجري مجرى الاصل والمادة له وقيل سمى روحاً لانه كان يحيي الاموات والقلوب (مجلد أول وجه ٢١٩)

وتفسيرها في الجلالين ياأهل الانجيل لاتجاوزوا الحد في دينكم ولا تقولوا على الله الا القول الحق من تنزيهه عن الشرك والولد « انما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته القاها » اوصلها الى مريم وروح اي ذو روح « ومنه » أضيف اليه تعالى تشريفاً وليس كما زعمتم ابن الله أو الهاً (جزء أول وجه ١٠٨)

(ملاحظة) ننظر أولا في قول الآية « يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم يعني لا تفرطوا في تعظيم المسيح حتى تعتبروه الهاً وابن الله فالخطاب في الآية لاهل الانجيل فبقوله ياأهل الكتاب يختم على ان الكتاب الحق بيدهم وهو من جملة أقوال القرآن الدالة على أمانة أهل الكتاب على كتابهم بحفظهم اياه من دنس التحريف كما قدرأيت بالكفاية في الباب الرابع وعليه فكان الجدير بمحمد ان يبحث أولا في الانجيل قبل أن ينسب لاهله الغلو في دينهم حتى اذا رأى الانجيل يصف المسيح بن مريم الهاً وابن الله يسلم بذلك أو على الاقل يعذر أهله على ايمانهم بالمسيح كابن الله واذا لم ير وصف المسيح ونعته في الانجيل أكثر من عبد الله ورسوله يؤنبهم بتقولهم على الله ما لم ينزله اليهم في كتابه الذي بين أيديهم . كما قيل انه فعل في حكمه بأمر الزانيين من يهود خيبر وهذا كان الاحرى به لان نسب الغلو لاهل الكتاب في دينهم بدون دراسة كتابهم حق الدراسة يعد ظلماً فلا يجدر بالمسلم العاقل

الذي يترنم بهذه الآية أغضاء الطرف عن قوة استهلالها « ياأهل الكتاب » فاها منها ان النصارى أهل الكتاب اي ان كتاب الله الحق هو عندهم وهم أهله ومن ثم لايليق به ان ينسب لهم الغلو في دينهم قبل الاطلاع الوافي على كتابهم الالهي فعوض ان يقول حسب الآية ياأهل الكتاب لاتغلوا في دينكم كان يجب ان يقول ياأهل الكتاب ايتوني بكتابكم لارى فيه صحة او بطلان دعواكم ان عيسى بن مريم الهٌ او ابن الله .

ثم اما كون المسيح رسول الله فهذا حقيٌ غير انه هو كلمة الله وابنه وذلك قلما يفرق عن نسبه في الآية « كلمته وروح منه » والا يليق ارسال الابن في بعض المهام كما يرسل العبد فقديرى الملك احياناً وجوب ارساله ابنه في مهمة دون غيره ويقال عن ابنه في تلك الارسالية انه رسول الملك وابنه ولان للمسيح هذه النسبة الالهية « ابن الله » في الانجيل تكراراً بصريح النص (انظر مت ١٤ : ٣٣ ومر ١ : ١ ولو ١ : ٣٥ ويو ١ : ٣٤ و ٤٩ ورؤ ٢ : ١٨) فقد دعاه القرآن بما يقرب من ذلك اذ هو لم يكتف بنعته بالرسالة قائلا انما هو رسول الله بل زاد انه كلمته وروح منه فليس النصارى اذاً مغالين في دينهم باعترافهم ان المسيح هو ابن الله بل هم شاهدون بالحق المنزل في الكتاب الذي الله أمنهم عليه ودعاهم أهله فتأمل . امّا من جهة تأويل الآية الذي معظمه في كلمته وروح منه فأقول بخصوص تأويل « وكلمته » ان تأويلها في الرازي لبعيد جداً عن محجة الصواب وهو أحرى به ان يعتبر هرباً لا تأويلا قال المعنى انه وجد بكلمة الله وأمره من غير واسطة ولا نطفة . جيداً وآدم وكل الخلائق وجدت في البدء بكلمة الله وامره فهل قيل في القرآن عن أحدمنها انه كلمة الله . آدم والمسيح كلاهما بدون أب وكلاهما نبيان ومع ذلك فقد امتاز المسيح عن آدم بنسبته في القرآن لله « كلمته وروح منه » فعلى موجب تأويل الامام يكون آدم أيضاً كلمة الله فهل يقول ذلك فكان على الامام عوض قوله « المعنى انه وجد بكلمة الله وأمره من غير واسطة ولا نطفة » ان يقول وما الداعي يا ترى لولادة المسيح على خلاف المجرى الطبيعي هل هو لانه

كلمة الله وروح منه نعم كان الاحرى بالامام ان يستدل بولادة المسيح هكذا على السر المتضمن في نسبته لله « كلمته وروح منه » معتبراً تلك النسبة الالهية باعثاً لولادته بدون اب . لا ان يتخذ ولادته هكذا سبباً لتلك التسمية « كلمته » ولان ولادة المسيح بدون أب لم تكن من ضرورة تدعو اليها كما في مسئلة خلق آدم التي يستدل منها انه لابد من ان يكون الباعث عليها عجيب واذا المسلم اغضى طرفه عن الانجيل الذي يبين له بوضوح وصراحة ذلك الباعث أقله فليعتبر نسبة المسيح لله في القرآن ككلمته وروح منه باعثاً على ولادته على خلاف المجرى الطبيعي وعليه فان تأويل الرازي المذكور عديم الاعتبار

اما تفسير « وكلمته » في البيضاوي فيفرق كثيراً جداً عما فسر الرازي بقوله « القاها » اوصلها اليها وحصلها فيها وكذا في الجلالين اوصلها الى مريم فانظر ان الامام البيضاوي جعل مريم كظرف لكلمة الله واذا كانت كلمة الله ذاتاً كما يلمح من الآية الاولى في هذا الباب (راجع وجه ١٠١ و ١٠٠) فيكون ايصالها من الله الى مريم وتحصيلها فيها من نوع الحلول وليس من فرق بين القول ان الله حصل كلمته في مريم وبين القول ان كلمة الله حلت في مريم واذا كانت كلمة الله ذاتاً حلت في احشاء مريم فهي الذات التي بشرت بها « اذ قالت الملائكة يامريم ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح » او هي حسب الانجيل ابن الله الوحيد الكائن الازلي وعلى كل لانقدر ان نحكم هل مراد البيضاوي بهذا التأويل هو الحلول ام لا وانما سواء كان مراده هذا او ذاك فيرى ان تأويله موافق كل الموافقة للقول ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح فالحاصل من هذه الآية ومن تفسيري البيضاوي والجلالين المتقدمين ان الكلمة التي بشرت بها مريم هي ذات كانت قبل حلولها فيها وان ذلك هو العلة لولادة المسيح منها من دون اب

اما تأويلهم « وروح منه » فان الامام الرازي يورد على ذلك وجوهاً مختلفة كما قد رأيت ويتركها بدون ان يحكم ايها صواب وايها خطاء اما نحن

فلا بأس علينا من النظر الى كل من هذه الوجوه بما يستطاع من الايجاز فمن جهة الوجه الاول والرابع اللذين هما كما ترى كوجه واحد نقول (اولا) ان القول عن المسيح وروح منه انه من نفخة جبريل يرفع جبريل كما لا يخفى على النبيه الى مقام الالوهية لاقتداره على الخلق بنفخته وليس فقط على الخلق بل على خلق نبي ومسيح تسامى على ماسواه من الانبياء . فالقائل بذلك قد ساوى جبريل بالله وهو لا يدري كما ترى في مسئلة خلق الله آدم اذترى الآية « فاذا سويته ونفخت فيهمن روحي فقعوا لهساجدين » (سورة الحجر آية ٣٠) فعلى موجب تأويل المؤول ان الله تعالى وجبريل سيان في القدرة على ايجاد حيّ بالنفخة نعوذ بالله من كفر كهذا . فكأني بالمأول اذ تعذر على معدة ذهنه هضم القول ان المسيح روح من الله لما انه يبين علو منزلته فوق كل نبي ومرسل ويواخي نص الانجيل وايمان النصارى بالمسيح رام اخفاض كلمة الله الى ما هو دون الملائكة بما ذهب فتهور الى وهدة الضلال ولم يدر . ذلك جزاء من يحاول ابعاد الآيات عن معناها الاقرب ومفادها الاقوم لعدم رواقه في عينيه الغاشيتين .

اما عن الوجه الاول والثالث المفيدين ان المسيح سمي روحاً من الله لانه كان سبباً لحياة الخلق الى آخر القول أقول ما من بصير حر الفكر يقدر ان يرى استطاعة المسيح على احياء الخلق في أديانهم سبباً لوصفه بانه روح من الله بل انما ذلك دليل له على انه روح من الله ولكونه روحاً من الله له القدرة على احياء الخلق فعجباً لهؤلاء المأولين كيف يعاكسون الآيات ويلوون الحقائق عن استقامتها بانهم يجعلون عمل المسيح باحيائه الخلق سبباً لوصفه بروح من الله لا ان كونه روحاً من الله يستطيع ذلك ومَن ليت شعري يستطيع احياء الخلق من موتهم الروحي الاّ روح الله أو ابن الله وما أشبه القول عن المسيح انه سبب لحياة الخلق فيأديانهم بالقول الانجيلي منه « وأما انا فقد اتيت لتكون لهم حياة وليكون لهم افضل . انا هو القيامة والحياة من آمن بي ولو مات فسيحيا » (يو ١٠ : ١٠ و ١١ : ٢٥) وهل

من فرق يعتبر بين قول المسيح هـذا عن نفسه والقول في البيضاوي عنه . وقيل سمي روحاً لانه كان يحيي الاموات والقلوب (انظروجه ١٠٦) فمن من الانبياء غير المسيح قيل عنه مثل ذلك حقاً انه مهما اجهد الناس انفسهم باخفاء انوار ابن الله فلا يستطيعون نوال مرامهم بل رغماً عن كل احتياطاتهم تشع بهائها الساطع من خلال أقوالهم ثم انه كما كان البون عظيماً بين الرازي والبيضاوي في تفسير « وكلمته » كذلك الامر بينهما في كلة « وروح منه » فان الاول كما رأيت يذهب فى بعض الوجوه التي اوردها انه روح من الارواح الشريفة العالية القدسية ، والثاني ان المسيح ذو روح صدر منه (يعني من الله) لا بتوسط مايجري مجرى الاصل والمادة له فما أقرب قول البيضاوي الى نقطة الحق المعلن في انجيل الله . لانه اي فرق جوهري بين القول ان المسيح روح صدر من الله وبين القول ان المسيح أتى من عند الله وهو ابن الله فانظر ماأعظم التلميح في هذه الآية وتأويلها الى لاهوت المسيح ابن الله وأعجب من ان الناطق بهذه الآية ومؤوّليها بعد كل هذا البيان منهم عن غرابة المسيح وسمو طبيعته وامتيازه بنسبته لله هكذا « كلته وروح منه » لا يعتبرونه أكثر من نبي مرسل بمثابة باقي الانبياء والمرسلين فما مثلهم بذلك الا مثل من يصف رجلا بصفة ابن الملك بالنسبة والمنزلة والحلية ثم يسلبه كل ذلك بعدم اعتباره اياه أكثر من رجل من حاشية الملك وسفرائه فتأمل

وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا « سورة النساء آية ١٥٦ »

(التفسير) وفيه اسئلة اهمها انه ان جاز ان يقال ان الله تعالى يلقي شبه انسان على انسان آخر فهذا يفتح باباً للسفسطة فانا اذا رأينا زيداً فلعله

ليس بزيد ولكنه ألقى شبه زيد عليه وعند ذلك لا يبقى النكاح والطلاق والملك موثوقاً به وأيضاً يفضي الى القدح في التواتر لان خبر التواتر انما يفيد العلم بشرط انتهائه في الآخرة الى المحسوس فاذا جوّزنا حصول مثل هذه الشبهة في المحسوسات توجه الطعن في التواتر وذلك يوجب القدح في جميع الشرائع وليس لمجيب يجيب عنه بان ذلك مختص بزمان الانبياء عليهم الصلاة والسلام لانا نقول لو صح ماذكرتم فذاك انما يعرف بالدليل والبرهان فمن لم يعلم ذلك الدليل وذلك البرهان وجب ان لايقطع بشيء من المحسوسات ووجب ان لايعتمد على شيء من الاخبار المتواترة وبالجملة ففتح هذا الباب يوجب الطعن في التواتر والطعن في التواتر يوجب الطعن في نبوة جميع الانبياء عليهم الصلاة والسلام فهذا فرع يوجب الطعن في الاصول فكان مردوداً

واختلفت مذاهب العلماء في هذا الموضع وذكروا وجوهاً (الاول) قال كثير من المتكلمين ان اليهود لما قصدوا قتله رفعه الله تعالى الى السماء فخاف رؤساء اليهود من وقوع الفتنة من عوامهم فاخذوا انساناً وقتلوه وصلبوه ولبسوا على الناس انه المسيح والناس ماكانوا يعرفون المسيح الا بالاسم لانه كان قليل المخالطة بين الناس وبهذا الطريق زال السؤال . لايقال ان النصارى ينقلون عن اسلافهم انهم شاهدوه مقتولا لانا نقول ان تواتر النصارى ينتهي الى اقوام قليلين لايبعد اتفاقهم على الكذب

(الطريق الثاني) انه تعالى القى شبهه على غيره ثم فيه وجوه

(الاول) ان اليهود لما علموا انه حاضر في البيت الفلاني مع أصحابه أمر يهوذا رأس اليهود رجلا من أصحابه يقال له طلطاوس ان يدخل على عيسى عليه السلام ويخرجه ليقتله فلما دخل عليه أخرج الله عيسى عليه السلام من سقف البيت وألقى على ذلك الرجل شبه عيسى فظنوه هو فصلبوه وقتلوه

(الثاني) وكلوا بعيسى رجلا يحرسه وصعد عيسى عليه السلام في الجبل ورفع الى السماء وألقى الله شبهه على ذلك الرقيب فقتلوه وهو يقول لست بعيسى

(الثالث) ان اليهود لما هموا بأخذه وكان مع عيسى عشرة من اصحابه

فقال لهم ومن يشتري الجنة بان يلقى عليه شبهي فقال واحد منهم أنا فالقى الله شبهه عليه فأخرج وقتل ورفع الله عيسى عليه السلام

(الرابع) كان رجل يدعي انه من أصحاب عيسى عليه السلام وكان منافقاً فذهب الى اليهود ودلهم عليه فلما دخل مع اليهود لاخذه القى الله تعالى شبهه عليه فقتل وصلب وهذه الوجوه متعارضة متدافعة والله أعلم بحقائق الامور (رازي مجلد ثالث وجه ٥٠١ و ٥٠٢)

وهكذا تفسير البيضاوي لهذه الآية من جهة عرض الجنة على من يفديه من أصحابه ومن جهة الرجل الذي كان ينافق والرجل المدعو طيطاوس الذي دخل يفتش عليه ولم يجده (مجلد أول وجه ٣١٥)

(ملاحظة) انه وان يكن ليس في هذه الآية الماع الى لاهوت المسيح كسالفاتها في هذا الباب فلا شك انها تدل على علو منزلة عيسى عند الله فوق الانبياء والمرسلين كافة اذ نقله حياً الى السماء رغماً عن أعدائه وطالبي نفسه ثم ربما يستغرب القارئ توجيه الآية نحو المسيح فقط انكاراً لدعواهم انهم قتلوا المسيح صلباً بدون أدنى تعرض لا فيها ولا في غيرها من القرآن لاعتقاد النصارى المصادق لدعوى اليهود هذه على ان استغرابه يزول اذا عرف كثرة اليهود جيران محمد في المدينة وندرة وجود النصارى في تلك الناحية وعدم اطلاع محمد وأصحابه على الانجيل .

فنقول أيخفى على محمد ان مسألة صلب المسيح وموته بالجسد بأيدي اليهود هي غاية التوراة ومحور الانجيل فالانبياء منذ القديم انبأوا عن ولادة المسيح وحياته وموته قتلا كذبيحة عن الخطية كما ترى ذلك في أسفار التوراة ولا سيما في نبوتي أشعياء ودانيال (اش اصحاح ٥٣ ودا ٩ : ٢٤ ــ ٢٧) والمسيح قبل موته أنبأ مراراً تلاميذه انه عتيد أن يسلم الى اليهود فيصلبوه ويقتلوه وفي اليوم الثالث يقوم . ورسله الذين يدعوهم القرآن حواريه كان جل كرازتهم به انه مات مصلوباً بأيدي اليهود فداء عن الخطاة وانه قام في ثالث يوم من موته ورفع الى السماء . وهنا نقول اذا كان اليهود والنصارى أهل

الكتاب وهو لم يمس منهم بتحريف مما كما رأيت فيما مرّ في الباب الرابع فبأي مسوغ ينكر عليهم كذا قضية هي أشهر وأجلّ قضاياه . فكان الاولى بمحمد ان أنكر الكتاب جملة من أن ينكر على أهله قضية هي أساس الكتاب ورأسه ولكن كيف يؤمن بالكتاب التوراة والانجيل الذي بين يديه داعياً اليهود والنصارى أهله زاعماً انه مصدق لما معهم (انظر سورة البقرة آية ٩٧) ثم ينكر مفاده وغايته الجلية بخصوص المسيح ذلك من باب نقض المرء قوله وثلمه شهادته باسانه الامر الذي لا يجدر بمثله . لعمرك كيف هو مصدق لما مع أهل الكتاب يعني كتابهم ثم ينكر عليهم قضية هي أوسع وأبين مما جاء فيه فأين ذاك التصديق فتأمل . ان الآية المشار اليها من سورة البقرة ليست هي ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما في التوراة بل مصدق لما معهم أي توراتهم الحالية الكائنة معهم الامر الدال على ثقة محمد بسلامة الكتاب حينئذ من شائبة التحريف وعلى أمانة أهله عليه فان قال قائل ان الآية في سورة البقرة تعني اليهود فقط وتوراتهم لا تنص انهم قتلوا عيسى ابن مريم قلنا (أولا) ان في التوراة انباءً صريحاً عن المسيح الذي سوف يأتي ويموت عن خطايا شعبه كما تقدمت الاشارة الى ذلك (ثانياً) ان التصديق المذكور هو على الكتاب كافة التوراة والانجيل بدليل ماجاء في الآية «نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والانجيل من قبل هدى للناس» (آل عمران آية ٢) وأيضاً وأنزلنا عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب (يعني التوراة والانجيل) (سورة المائدة آية ٤٩) ومحمد يحثّ أهل الانجيل على الحكم بما أنزل الله فيه قائلا «وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه» (المائدة آية ٤٨) حسناً . وليس من مسلم عاقل ينكر ان محمداً مصدق الانجيل الكائن يومئذ بيد النصارى فيقدر أولئك النصارى ان يقولوا له كما نحن اليوم ياأبا القاسم انت تحثنا على الحكم بما أنزل الله في الانجيل الذي معنا . حسناً . ان الله أنزل في الانجيل قصة صلب المسيح وامانته بايدي اليهود وقيامته في اليوم الثالث من موته وهو مشحون بهذه الخبرية على

اساليب شتى وهي كما لايخفى عليك مدار تعليم الرحمة والنعمة فيه التي لو نزعت منه لاشبه بنواة نزع منها لبها فان كنت حقاً مصدقاً لما بين يديك من الكتاب الذي معنا فيلزم ان يكون ايمانك بالمسيح كايماننا فتكون مسيحياً نظيرنا وداعياً من دعاة ربنا والافدعواك انك مصدق لما بين يديك من الكتاب الذي معنا غير صحيحة لان التصديق بالشيء وتكذيبه نقيضان لايجتمعان . حقاً ان أغرب ماجاء في تاريخ البشر هو الاقرار بصحة الكتاب الكائن بايدي اليهود والنصارى والدعوى بتصديقه ثم انكار أهم اعلاناته ومضامينه

اما من جهة التأويل لهذه الآية فنقول (اولا) ان الجواب على السؤال أو بالحري الاعتراض المتين على مفادها لايعتبر جواباً او حلاً له الا في أعين السدج الاغبياء على ان ذلك كلما هو في وسع المدافع الذي لما لم يرَ له مناصاً من المجاوبة قال ما قال كالباني على الرمال زاعماً ان بذلك قد زال السؤال وانا لنشكر المنتقد اذ كفانا مؤنة التعب بانشاء مايماثل انتقاده (ثانياً) من أين يعرفون ان المسيح ما كانت الناس تعرفه الاّ بالاسم لانه كان قليل المخالطة للناس ومن المسلم ان حياة المسيح وأعماله على الارض لا تعرف الا من انجيله وانجيله يخبرنا ان المسيح عاش ثلاثين سنة مع والدته يشتغل بحرفة النجارة في الناصرة وانه كان معروفاً بيسوع الناصري النجار ويخبرنا انه غب ذلك ترك حرفته وعاش نحو ثلاث سنين كان لا يفتر فيها عن الجولان في أراضي اليهودية سهولها وجبالها مدنها وقراها منادياً بملكوت الله ومبشراً بنعمته داعياً الناس الى التوبة والايمان عاملا آياته ومعجزاته الخيرية حتى ذاع خبره في جميع سورية . (انظر مت ٤ : ٢٤) فكانت تتقاطر عليه الناس من أنحاء البلاد حاملين اليه جميع السقماء والمرضى والمجانين لينالوا منه الشفاء فكيف ما كانت الناس تعرفه الا بالاسم . المسيح نور أشرق في البلاد وهل يخفى النور على ذي بصر . ألا يقول عنه القرآن انه كان يحيي الموتى ويبرئ الاكمه والابرص وانه أنزل مائدة من السماء فكيف اذاً كان غير معروف من الناس . الطبيب الماهر يبعد صيته بسرعة فتقصده الناس

من كل صوب . فكيف اذا كان رجل كعيسى يحيي الموتى ويشفي المرضى بمجرد كلمته أو وضع يده وهو فاتح صدره الرحيب لقبول كل من يأتي اليه بلطف وحب مجيب لا يطير صيته على جناح السرعة وتتقاطر اليه الجماهير والافراد لرؤياه وسماع كلامه ونوال بركاته فعارٌ على من له ذرة من العقل أن يقول كذا قولا ساقطاً لا رواج له عند ذوي العلم

أما قولهم لانا نقول ان تواتر النصارى ينتهي الى أقوام قليلين لا يبعد اتفاقهم على الكذب فهو مدحوض من أربعة وجوه (الاول) ان النصارى ليسوا ناقلين عن أسلافهم خلفاً عن سلف قصة صلب المسيح كما يموّهون بل هي غاية كتابهم وعمدة انجيلهم كما تقدم بيانه أعلاه (الثاني) ان ماجاز حسب زعمهم على تواتر النصارى الموهوم جاز على تواتر المسلمين (الثالث) ان أهل العلم من المسلمين يعتبرون شهادة التواتر كحقيقة لا مراء فيها راجع وجه ١١١ و١١٢ (الرابع) على افتراض ان ليس للنصارى كتاب أو ان كتابهم تلاشى من الارض فتواتر قصة صلب المسيح عندهم ينتهي الى حواريه وأمه فهل في عرفهم ان حواريي المسيح كاذبون بقصهم هذا الخبر على الناس أو هل يقولون بامكان اتفاقهم على الكذب وهم المسمون في القرآن أنصار الله (انظر سورة آل عمران آية ٥٠)

أما كلامهم في الطريق الثاني من القاء الله شبه عيسى على انسان آخر فهو كما ترى من نوع الخبط الصبياني غير المستحق الرد عليه وانظر ان القوم بمذاهب متضاربة في هذه المسئلة وكيف يتفقون في أمر لا أساس له غير ما جاء في قرآنهم وهو مناف للواقع وللاصول المقررة كما رأيت فيما تقدم وجه ١١١ و ١١٢ ونحن لا نؤاخذهم كثيراً والآية تنص انهم ما صلبوه وما قتلوه ولكن شبه لهم فكأنهم لما رأوا أنفسهم مضطرين الى تأويل الآية ولا تاريخ لهم يعتمد عليه كيف شبه لهم ولا تلميح الى ذلك في الكتاب ولو انه على نوع بعيد بل بالحري ما ينافيه كما تقدم لجأوا الى تصورات المخيلة فهام كل منهم في جهة تباين الاخرى الامور التي لم تتفق في سوق ذهن

الامام الذي أسفنا انه بخل علينا باعطاء فكره من هـذا القبيل اذ وقف كمتفرج في ساحة خوض أولئك بمراد الآية وتأويل نصها شبه لهم ثم زانها وقال ان هذه الوجوه متعارضة متدافعة والله أعلم بخفائق الامور يعني انه لا يقدر ان يقطع بصحة وجه منها . جيد قولك هذا أيها الامام غير ان الله العالم بكل الامور أعان لك ولاسلافك من المسلمين حقيقة صلب المسيح وموته بالجسد في انجيله بأيدي النصارى المصدق عليه من نفس القرآن الذي أنت مفسره فبعد كل هذا اما ينبغي لك ان تتخذ الانجيل نبأ لك من الله فيه بخصوص هذه المسئلة التي هي محور الكتاب وغايته

إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ

« سورة آل عمران آية ٤٨ »

(التفسير) في تفسير هذه الآية مسائل وآداء يطول شرحها نأتي بأهمها « اني متوفيك » في تأويل هذه الكلمة وجوه (الاول) متوفيك أي اني متمم عمرك فحينئذ أتوفاك فلا أتركهم حتى يقتلوك بل أنا رافعك الى سمائي (الثاني) متوفيك أي مميتك وهو مروي عن ابن عباس ومحمد بن اسحق قالوا والمقصود ان لا يصل أعداؤه من اليهود الى قتله ثم انه بعد ذلك أكرمه الله بان رفعه الى السماء ثم اختلفوا على ثلاثة وجوه (احداها) قال وهب توفي ثلاث ساعات ثم رفع الى السماء (ثانيها) قال محمد بن اسحق توفي سبع ساعات ثم أحياه الله ورفعه (وثالثها) قال الربيع بن أنس انه تعالى توفاه حين رفعه الى السماء قال الله تعالى يتوفى الانفس حين موتها والتي لم تمت في منامها . ثم يقول وبقي من مباحث هذه الآية موضع مشكل وهو ان نص

القرآن دلّ على انه تعالى حين رفعه الى السماء القى شبهه على غيره على ما قال « ما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » ويورد على ذلك عدة اشكالات مستطيلة الكلام نأتي بأهمها ملخصاً . منها (الاشكال الثالث) انه تعالى كان قادراً على تخليصه من أولئك الاعداء بأن يرفعه الى السماء فما الفائدة في القاء شبهه على غيره وهل فيه الا القاء مسكين في القتل من غير فائدة اليه .

(الاشكال الرابع) اذا القي شبهه على غيره ثم انه رفع بعد ذلك الى السماء فالقوم اعتقدوا فيه انه هو عيسى مع انه ما كان عيسى فهذا كان القاء لهم في الجهل والتلبيس وهذا لا يليق بمحكمة الله تعالى (الاشكال الخامس) ان النصارى على كثرتهم في مشارق الارض ومغاربها وشدة محبتهم للمسيح عليه السلام وغلوهم في أمره أخبروا انهم شاهدوه مقتولاً مصلوباً فلو انكرنا ذلك كان طعناً فيما ثبت بالتواتر والطعن في التواتر يوجب الطعن في نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ونبوة عيسى بل في وجودهما ووجود سائر الانبياء عليهم الصلاة والسلام وكل ذلك باطل

(والجواب على الاشكال الثالث) فانه تعالى لو رفعه الى السماء وما القى شبهه على الغير لبلغت تلك المعجزة الى حد الالجاء (والجواب عن الرابع) ان تلامذة عيسى كانوا حاضرين وكانوا عالمين بكيفية الواقعة وهم كانوا يزيلون ذلك التلبيس . (الجواب عن الخامس) ان الحاضرين في ذلك الوقت كانوا قليلين ودخول الشبهة على الجمع القليل جائز والتواتر اذا انتهى في آخر الامر الى الجمع القليل لم يكن مفيداً للعلم وبالجملة فالاسئلة التي ذكروها أمور تتطرق اليها الاحتمالات من بعض الوجوه ولما ثبت بالمعجز القاطع صدق محمد صلى الله عليه وسلم في كل ما أخبر عنه امتنع صيرورة هذه الاسئلة المحتملة معارضة للنص القاطع والله ولي الهداية (رازي مجلد ثاني وجه ٦٩٠ و ٦٩١ و ٦٩٢) .

وتفسيرها في البيضاوي هو «اني متوفيك» أى مستوفي أجلك ومؤخرك الى أجلك المسمى عاصماً اياك من قتلهم أو قابضك من الارض أو متوفيك

نائماً اذ رُويَ انه رفع نائما أو مميتك عن الشهوات العائقة عن العروج الى عالم الملكوت وقيل اماته الله سبع ساعات ثم رفعه الى السماء واليه ذهبت النصارى ورافعك اليّ الى محل كرامتي ومقر ملائكتي (مجلد أول وجه ٢٠٩)

(ملاحظة) انا نرى في هذه الآية وتأويلها ثلاث نكت (النكتة الاولى) هي منافاة هذه الآية لسالفتها في هذا الباب من حيث موت عيسى وعدمه فان مراد الاولى كما رأيت ان عيسى لم يمت بل رفع حياً الى السماء ومفاد هذه ان الله أماته ثم أحياه ورفعه الى السماء فكيف وهما آيتان من عند الله تنقض احداهما الاخرى حاشا لله ان يأتي بمثل ذلك ومحال كيانه منه تعالى. لاجرم ان هذا التناقض البين بين هاتين الآيتين يلقي المسلم المخلص في عربسة لايرى الى الانفلات منها سبيلاً والقول في الوجه الاول من تفسير هذه الآية متوفيك يعني متمم عمرك لايستحق في عينيه شيئاً من الاعتبار كما لم يستحق عند غيره من أهل العلم كما رأيت في الوجه الثاني من تأويلها وذلك من وجهين (الاول) لان كلمة وفاة وتوفي في اللغة لاتفيد أكثر من موت ومات (الثاني) لانه لايرى ان قائلي هذا القول قالوه الا عن افلاس الفكر والانحصار المحرق من جرى التباين والتناقض البين بين الآيتين فقالوه أملا باقناع البسيط لا اقناعهم فنطالب أهل القرآن اما بالاقرار بتناقض الآيتين واما ببيان عدمه ان كان في حيز امكانهم

(النكتة الثانية) بقاء الاشكالات الواردة في مباحث هذه الآية غير محلولة لان الجوابات المرقومة عليها ليست كما ترى دفعاً لها بل بالحري تزيدها مكانة واعتباراً في اعين أهل الدراية والانصاف فكأني بالامام اذ ازعجه متانتها وعظيم حجتها وكونها غير قابلة الدفع والدحض كما يلوح لك من كلامه الاخير في تأويل الآية وكان هو آخذاً بشرح القرآن لفائدة ابناء دينه رأي عاراً عليه عدم المجاوبة كلياً فرام سد الثغرة ولو بتبنة فقال ماقال كمجاوب حتى يقال جاوب ولعل ذلك منه على أمل قبوله عند بسطاء المسلمين واطفالهم لان ما الضرر اذا بلغت معجزة رفع عيسى الى السماء بدون القاء شبهه على غيره

حد الالجاء (كانه يعني بالالجاء الجاء الكافر الى الايمان بواسطة المعجزة الظاهرة لعينيه او الجاؤه الى ترك ما كان قصده من ايذاء ذلك النبي) والا تكون هذه المعجزة أشبه بمعجزة تحويل نار ابراهيم الي برد وسلام (حسبما يقول القرآن) فاذا كانت معجزة رفع عيسى الى السماء بدون القاء شبهه على غيره لاتناسب لبلوغها حد الالجاء فكيف اذ ذلك ناسب معجزة تحويل نار ابراهيم الى برد وسلام التي الجأت قومه الكفار الى الكف عنه وكيف ناسبت معجزات موسى في مصر لكف المصريين عن ايذاء بني اسرائيل والجاء فرعون الى تخلية سبيلهم اذاً قوله « فانه تعالى لو رفعه الى السماء وما ألقى شبهه على الغير لبلغت تلك المعجزة الى حد الالجاء » هو لقول عبث وليس فيه شبه الدفع لذلك الاشكال وما أوهن واسقم كلامه كجواب عن الاشكال . الرابع ان حضرته بذلك الجواب يحكم بصدق واخلاص تلامذة المسيح بقوله « ان تلامذة عيسى كانوا حاضرين وكانوا عالمين بكيفية الواقعة وهم كانوا يزيلون ذلك التلبيس » يعني انهم كانوا يقولون للقوم ان الشخص المصلوب والمقتول ليس هو عيسى بل شبيهاً به القى الله شبه عيسى عليه وكان ذلك بحضورنا وعلمنا ذلك لعمرك من أغرب التهم والافك فمتى واين قال تلاميذ المسيح مثل هذا القول وما البيان على ذلك

فيا أيها الامام ومن قال بقوله ان تلاميذ المسيح الاطهار ليس فقط انهم لم يقولوا شيئاً مما تذكرون بل هم كتبوا بوحي الروح القدس في انجيل سيدهم المسيح بتفصيل وبيان خبر صلبه وقتله من اليهود بسلطة الحكومة الرومانية ثم قيامته وصعوده الى السماء القصة التي هي محور كرازتهم باسمه كما ترى ذلك في الانجيل ان أردت .

اذاً ما تقدم من الامام لم يؤثر في قوة الاشكالات المذكورة وانا أزيد عليها بان القاء شبه عيسى على غيره حتي يوهم انه هو عيسى فلا يشك اليهود بكون المقتول منهم هو عيسى هو محض غش وكذب وذلك محال في الله المنزه عن الكذب واذا لم تسمِ هذا الامر غشاً وكذباً فماذا تسميه

اما الجواب عن الاشكال الخامس وهو الطعن بالتواتر فهذا قد دحضناه في

ملاحظتنا على الاية السالفة كما قد أبان زيفه غيرنا من أهل العلم والانصاف فلينظر في محله وجه ١١٢ و ١١٤ و ١١٥

(النكتة الثالثة) تخاص الامام الوهمي والغريب الشكل من هذه الاشكالات المكيدة بنوع الدور الباطل عند عموم المتكلمين بقوله وبالجملة فالاسئلة التي ذكروها تتطرق الاحتمالات اليها من بعض الوجوه ولما ثبت بالمعجز القاطع صدق محمد صلى الله عليه وسلم في كل ما أخبر عنه امتنع صيرورة هذه الاسئلة المحتملة معارضة للنص القاطع والله ولي الهداية (وجه ١٣٢) فانظر ان الامام اذ رأى وهن اجوبته وكونها ليست حلا لتلك الاشكالات وان قيام تلك الاشكالات هبوط للاسلام أحوجته الضرورة رغماً عن حكم تعقله ان يلجاء الى قول ما قال فاشبه بذلك على قول المثل (هرب من الدب فوقع في الجب)

فأقول ان القول بثبوت صدق محمد بالمعجز القاطع فهو دعوى بلا برهان كما سترى وهو اذا كانت هذه الاسئلة محتملة كما يقر الامام فهي معارضة لنص القرآن واذا كانت معارضة لنص القرآن يكون ذلك من وجوه عدم اعجازه واذا تبين ان القرآن ليس بمعجز سقط القول بثبوت صدق محمد بالمعجز القاطع لان صدق محمد بادعائه النبوة متعلق حسب فكرهم على اعجاز القرآن الذي أتى به (راجع وجه ٦ ووجه ١٢) فاذا بطل اعجاز القرآن بطل كون محمد صادقاً في مدعاه فكيف جاز للامام ان يجعل الدعوى بثبوت صدق محمد مانعاً لصيرورة هذه الاشكالات المحتملة معارضة للنص ومحمد لاتقوم دعواه الا بثبوت النص . ثم اذا تبين ان القرآن ليس هو بالمعجز القاطع تتطرق الاحتمالات الى هذه الاسئلة المعارضة لنصه ولوجود النقيض فيه كما بين الآية التي نحن في صددها وبين ماقبلها (راجع وجه ١١٧) ولما فيه أيضاً من المناقضة والاختلاف والتكرار واللحن وايضاح الواضح كما ترى في الباب الاول من هذا الكتاب (انظر وجه ٣ فصاعداً) ولايبقى لمحمد أساس لتصديق دعواه بالنبوة ولا في كل ما أخبر عنه . فيزول ثم المانع الذي اقامه الامام

لصيرورة هذه الاسئلة المحتملة معارضة للنص . ثم نقول اذا كان حسب زعمه ان القرآن معجز قاطع فلا يكون فيه شيء ممكن معارضته ولا يكون له حاجة ان يسند بصدق محمد لانه اذا احتاج الى صدق محمد لمنع صيرورة تلك الاسئلة المحتملة معارضة لنصه فلا يكون معجزاً واذا لم يكن معجزاً (كما قد تبين) ولا معجزة لمحمد غيره عدم محمد البينة على صدق دعواه وما ظني بالامام يجهل هذه الامور الاولية واذا كان لا يجهلها فما باله ينزل نفسه منزلة الجاهل الغبي بالتجائه في مثل هذه الزحمة الى الدور الباطل وهو ان يقيم القرآن بياناً لصدق محمد ثم صدق محمد مانعاً لمعارضة القرآن بالاسئلة المحتملة الامر الساقط الاعتبار عند كل من له ذرة من العقل . أيعضد محمد بالقرآن ثم يعضد القرآن بمحمد وهو لا يجهل ان ذلك شائع البطلان

تذييل

ان حاصل ما أوردناه من الآيات وتأويلها في هذا الباب ان عيسى بن مريم امتاز عما سواه من المخلوقات بتسعة أمور (الاول) كونه بدون أب (الثاني) كونه كلمة من الله أو كلمة الله (انظر وجه ١٠٠ و١٠٥) (الثالث) كونه روحاً من الله (الرابع) كون اسمه المسيح (الخامس) كونه وجيهاً في الدنيا والآخرة (السادس) كونه كلم الناس وهو في المهد (السابع) خلقه حياً من لا حي (الثامن) قيامته من الموت (التاسع) رفعه حياً الى السماء وتأويل روحانيته ووجاهته روح من الله اي صدر من الله وانه سمي روحاً لانه كان يحيي الاموات والقلوب ووجاهته في الدنيا بسبب انه كان مبرأ من العيوب التي وصفه اليهود بها وفي الآخرة بسبب كثرة ثوابه وعلو درجته عند الله تعالى في الدنيا بسبب انه يستجاب دعاؤه ويحيي الموتى ويبرئ الاكمه والابرص وفي الآخرة انه يجعله شفيع أبناء أمته المحقين . فياذا النيرة انظر أفليس ان هذه الامتيازات الخاصة بعيسى تدل انه شخص عجيب غريب الطبيعة والمصدر لا يقاس به نبي ولا مرسل فهل بعد كل هذا يلام المسيحيون على ايمانهم بالمسيح حسب نص كتابهم انه

ابن الله الحي . ثم لاجل تتمة الفائدة ببيان المشابهة والمقاربة الكلية بين نص القرآن والانجيل وضعنا الجدول أدناه

اذ قالت الملائكة يا مريم ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين ويكلم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين . قالت رب انّى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء اذا قضىَ أمراً فانما يقول له كن فيكون (سورة آل عمران آية ٤٤ ــ ٤٧)	وفي الشهر السادس أرسل جبرائيل الملاك من الله الى مدينة من الجليل اسمها ناصرة الى عذراء مخطوبة لرجل من بيت داود اسمه يوسف واسم العذراء مريم فدخل اليها الملاك وقال سلام لك أيتها المنعم عليها الرب معك مباركة انتِ في النساء. فلما رأته اضطربت من كلامه وفكرت ما عسى ان تكون هذه التحية فقال لها الملاك لا تخافي يا مريم لانك قد وجدت نعمة عند الله وها أنت ستحبلين وتلدين ابناً وتسمينه يسوع هذا يكون عظيماً وابن العلي يدعى ويعطيه الرب الاله كرسي داود أبيه ويملك على بيت يعقوب الى الابد ولا يكون لملكه نهاية . فقالت مريم للملاك كيف يكون هذا وأنا لست أعرف رجلاً فاجاب الملاك وقال لها الروح القدس يحل عليك وقوة العلي تظللك لان القدوس المولود منك يدعى ابن الله (لو ١ : ٢٦ ــ ٣٥)
يبشرك بكلمة منه وكلمته القاها الى مريم (سورة النساء من آية ١٦٧)	والكلمة صار جسداً وحل بيننا ورأينا مجده مجداً كما لوحيد من الاب مملوءاً نعمة وحقاً (يو ١ : ١٤)
(تأويلها) القاها الى مريم أوصلها اليها وحصلها فيها (انظر وجه ١٠٦ و ١٠٧)	

عن ابنهِ الذي صار من نسل داود من جهة الجسد (رو ١ : ٣)

وهو متسربل بثوب مغموس بدم ويدعى اسمه كلمة الله (رؤ ١٩ : ١٣)

وروح منه (النساء من آية ١٦٧) (التأويل) وذو روح صدر منه (انظر وجه ١٠٦)

لان الاب نفسه يحبكم لانكم قد أحببتموني و آمنتم اني من عند الله خرجت. خرجت من عند الآب وقد أتيت الى العالم (يو ١٦ : ٢٧ و ٢٨) فقال لهم يسوع لو كان الله أباكم لكنتم تحبونني لاني خرجت من قبل الله وأتيت . الحق الحق أقول لكم قبل ان يكون ابراهيم أنا كائن (يو ٨ : ٤٢ و ٥٨)

وقيل سمي روحاً لانه كان يحيي الاموات والقلوب انظر (وجه ١٠٦)

قال لها يسوع أنا هو القيامة والحياة من آمن بي ولو مات فسيحيا وكل من كان حياً و آمن بي فلن يموت الى الابد . . . ولما قال هذا صرخ بصوت عظيم لعازر هلمَّ خارجاً فخرج الميت (يو ١١ : ٢٥ و ٤٣ و ٤٤)

وصف انه روح لانه كان سبباً لحياة الخلق في اديانهم (انظر وجه ١٠٥)

مَن منكم يبكتني على خطية فان كنت أقول الحق فلماذا لستم تؤمنون بي (يو ٨ : ٤٦) فخرج بيلاطس ايضاً خارجاً وقال لهم ها أنا أخرجه اليكم لتعلموا اني لست أجد فيه علةً واحدةً (يو ١٩ : ٤)

وجيهاً في الدنيا والآخرة

في الدنيا لانه كان مبرأ من العيوب التي وصفه اليهود بها وبسبب انه يستجاب دعاؤه الخ ...

ورفع يسوع عينيه الى فوق وقال

وفي الآخرة بسبب انه يجعله شفيع أبناء أمته المحقين (وجه ١٠٤)

من هو الذي يدين . المسيح هو الذي مات بالحري قام أيضاً الذي هو أيضاً عن يمين الله الذي أيضاً يشفع فينا (رو ٨ : ٣٤)

اسمه المسيح (آل عمران من آية ٤٤)

انه ولد لكم اليوم في مدينة داود مخلص هو المسيح الرب (لو ٢ : ١١)

انما المسيح عيسى بن مريم (النساء من آية ١٦٧)

فأجاب سمعان بطرس وقال أنت هو المسيح ابن الله الحي (مت ١٦ : ١٦)

من تأويل اسم المسيح «قال أبو عمر بن العلاء» المسيح الملك (انظر وجه ١٠٠)

ان الله جعل يسوع هذا الذي صلبتموه انتم رباً ومسيحاً (ا ع ٢ : ٣٦) ولما ولد يسوع في بيت لحم اليهودية في أيام هيرودس الملك اذا مجوس من المشرق قد جاؤا الى اورشليم قائلين اين هو المولود ملك اليهود فاننا رأينا نجمه في المشرق وأتينا لنسجد له ... فجمع كل رؤساء الكهنة وكتبة الشعب وسألهم أين يولد المسيح فقالوا له في بيت لحم اليهودية (مت ٢ : ١ ــ ٥)

واذ تخلق من الطين كهيئة الطير باذني فتنفخ فيها فتكون طيراً باذني (وجه ١٠٤)

ما دمت في العالم فانا نور العالم قال هذا وتفل على الارض وصنع من التفل طيناً وطلى بالطين عيني الاعمى وقال له اذهب الى بركة سلوام واغتسل ... فمضى واغتسل وأتى بصيراً (يو ٩ : ٥ و ٦ و ٧)

اذ قال الله يا عيسى اني متوفيك

ولما صلبوه اقتسموا ثيابه مقترعين

ورافعك اليّ (سورة آل عمران آية ٥٣)

روي عن ابن عباس ومحمد بن اسحق انهما قالا متوفيك أي ميتك ثم أقامه الله ورفعه الى السماء قال وهب توفي ثلاث ساعات ثم رفع الى السماء وقال محمد بن اسحق توفي سبع ساعات ثم أحياه الله ورفعه الى السماء (انظر وجه ١١٦)

عليها ... فصرخ يسوع أيضاً بصوت عظيم وأسلم الروح . وكانت الساعة الثالثة فصلبوه . فصرخ يسوع بصوت عظيم وأسلم الروح ونادى يسوع بصوت عظيم وقال يا أبتاه في يديك أستودع روحي ولما قال هذا اسلم الروح . واما يسوع فلما جاؤا اليه لم يكسروا ساقيه لانهم رأوه قد مات (مت ٢٧ : ٣٥ و ٥٠ ومر ١٥ : ٢٥ و ٣٧ ولو ٢٣ : ٤٦ ويو ١٩ : ٣٣)

فاني أعلم انكما تطلبان يسوع المصلوب ليس هو ههنا لانه قام كما قال . انتن تطلبن يسوع الناصري المصلوب قد قام ليس هو ههنا . لماذا تطلبن الحي بين الاموات ليس هو ههنا لكنه قام (مت ٢٨ : ٥ و ٦ ومر ١٦ : ٦ ولو ٢٤ : ٥ و ٦)

وأخرجهم خارجاً الى بيت عنيا ورفع يديه وباركهم وفيما هو يباركهم انفرد عنهم واصعد الى السماء فسجدوا له ورجعوا الى أورشليم بفرح عظيم (لو ٢٤ : ٥٠ و ٥١ و ٥٢)

لكنكم ستنالون قوة متى حل الروح القدس عليكم وتكونون لي شهوداً في اورشليم وفي كل اليهودية والسامرة والى اقصى الارض ولما قال هذا ارتفع وهم ينظرون واخذته سحابة عن اعينهم وفيما كانوا يشخصون الى السماء وهو منطلق اذا رجلان قد وقفا بهم بلباس ابيض وقالا ايها الرجال الجليليون ما بالكم واقفين تنظرون الى السماء . ان يسوع هذا الذي ارتفع عنكم الى السماء سيأتي هكذا كما رأيتموه منطلقاً الى السماء حينئذ رجعوا الى اورشليم من الجبل الذي يدعى جبل الزيتون الذي هو بالقرب من اوشليم على سفر سبت (ا ع ١ : ٨ ــ ١٢)

فأسألك ايها القاريء العزيز أما وجدت المقاربة المعنوية والموافقة الجوهرية بين حقلي الآيات في هذا الجدول وأما رأيت فيهما من عظمة المسيح وسمو شأنه مايسمو جداً عن مقام انبياء الله ومرسليه وان تفسير الآيات المدونة في هذا الباب وان لم تصب الغرض تماماً فقد قربت الذهن الى نقطة الصواب وان آيات الانجيل بخصوص المسيح هي كتفسيرية لامتيازاته القرآنية حال كونها هي الاصلية انما اواه من التعصب الاعمى للدين الموروث كيف حال بين الحق والعقل فساوى بين الزكي والبليد ولا سبيل الى الاصلاح من هذا الفساد واستقامة هذا الاعوجاج الا برفع هذا التعصب وحسبان المرء نفسه كمولود جديد وغريب فريد يبتغي الحق من بابه والهدى من مصدره

الخاتمة

اذ قد بلغت بعونه تعالى نهاية المطلوب من استحضار شهادة القرآن لكتب انبياء الرحمن وما حوى من الدليل الصريح الى سر لاهوت المسيح اوجه كلام الاخلاص اليك أيها المسلم المخلص الدائب على القرآن الملازم المسجد الذي لايهمك سوى مرضاته تعالى آملاً من حلمك ان ترعني سمعك وتصغي الى ما سأبديه لفهمك ثم احكم فيه لنفسك واني لست هنا مكلماً الرعاع السفلة المكتفين من الدين باسمه المجذوبين بجبائل العصبية والمغلولين بقيود الغباوة بل اياك أيها النبيل التقي أخص كلامي واليك ابسط مقالي فها قد رأيت والحمد لله ما أدرجناه في هذا الكتيب من صريح الشهادة في قرآنك للكتاب التوراة والانجيل الكائن بيد طائفتي اليهود والنصارى وكيف أجمع أشهر علمائكم الراسخين على سلامته من التحريف والتبديل لبلوغه مبلغ التواتر في الشرق والغرب وعلى ان مراد الآيات كآية « ولاتلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وانتم تعلمون » وآية « يحرفون الكلم عن مواضعه » الى نحو ذلك من الآيات المتقدمة انما هو تشويش الدلائل على السامع بالقاء الشبهات الباطلة ومنع غير السامع من الوصول الى تلك الدلائل ووضع الباطل موضع الصحيح تحريفاً

باللسان لا بالكتاب كما في مسئلة يهود خيبر المتقدم ذكرها واذا عنى لك لا سمح الله ما يعنو للجهلاء ان التحريف اللفظي وقع في الكتاب بعد محمد والقرآن أقول ذلك لايمكن البتة لاتساع دائرة التواتر ولكونه بيد كل فريق وشيعة من الفرق والشعب النصرانية بلغتها الخاصة ولوقوف الاخصام لهم في المرصاد ولترصيع كتب المناظرة والمجادلة العديدة بآياته الامور التي لم تدع سبيلاً الى ذلك ولا محلاً لهذا الزعم .

واذا كان في اثناء نحو ستة قرون اي من عهد المسيح الى ظهور محمد لم يقع التواطوء على تحريفه أمكن وقوع ذلك فيما بعد . كلا . وقد علمت ارشدك الله عدم جواز الطعن في التواتر وان الطعن في التواتر يوجب الطعن على ما قال علمائكم في نبوة محمد ونبوة عيسى بل في وجودهما ووجود سائر الانبياء (راجع وجه ٦٠ و ١١٧ و ١١٨ و ١٢٢) وهنا أرجوك الوقوف هنيهة وإعمال الفكرة فيما تقدم اذا كان الكتاب هكذا سليماً من شائبة التحريف والتبديل كما قد تبين لك ماذا يترتب عليك كانسان لايروم سوى الحق ألا وهو ان تسلم وتؤمن بصحة ماقد جاء فيه بخصوص عيسى المسيح كابن الله وموته بالجسد فداءً عن الانسان . بلى . لان الاعتقاد بانزال الكتاب وسلامته موجب لقبول ما جاء فيه وكاني بك باعتياد ذلك في موقف الحيرة والربكة لايسعك انكار سلامة الكتاب ولا كذا قضية هي غاية التوراة وروح النبوة ومفاد الانجيل ومن جهة أخرى ترى صعوبة التسليم بكذا مسئلة غاية في الغرابة ومنكرة من القرآن قد ربيت على انكارها والانفة منها واني لمستحسّ معك بهذا الانحصار والتضايق الذي قد يصيب كثيرين ممن يبلغون مثل هذه النقطة الخطيرة وهم شديدو التمسك بما ورثوه من اسلافهم من العقائد المنافية لها بيد اني ارجوك استغراق تأملك في ما تقدم في البابين الخامس والسادس ببصيرة خلت من شائبة الغرض والعصبية لعل بذلك تنقشع سحابة حيرتك وتحل عقدة ارتباكك فتخرج كمن نشط من عقال .

لايخفى عليك ان البيت باساسه وكل بيت بلا أساس يدركه عاجل الخراب

فما تقدم في الباب الخامس اساس راسخ لما أدرج في الباب السادس فكان هو أولى اولاً بالنظر. لقد رأيت حفظك الله في هذا الباب الاساسي أمرين خطيرين (الاول) كون اسحق ويعقوب هما ابوا النسل المبارك لابراهيم (الثاني) اختصاصه تعالى ذلك النسل بالنبوة والكتاب أرأيت كيف ان اسحق ويعقوب هما هبة الله لابراهيم كانه لم يرزق سواهما حال كونهما مسبوقين باسمعيل وعيسو وانهما مع ابراهيم أبيهما أولي الايدي والابصار كأن لاسواهم في عصرهم ذو علم وعمل وان كل الآيات في هذا الباب دلت كما باصبع واحد على ان غاية الله العظمى هي في نسل اسحق ويعقوب ثم لقد رأيت هناك تقصير المفسرين عن بلوغ كنه الحقيقة البادية في تلك الآيات لانجذابهم بحبائل العصبية العمياء التي كثيراً ما ورّطتهم بأوحال الركاكة والسخافة غير الحرية بذوي النبالة ومع ذلك كانوا في نقط كثيرة كما قد رأيت يلتزمون رغماً عن أهوائهم الى المصادقة على نوع ما بتفضيل الله بني اسرائيل على العالمين واحياناً كانه على غير انتباه يرجع تأويلهم الى تأييد هذه الحقيقة. أما أولئك المفسرون فقد مضوا و آيات القرآن هذه لم تزل هي هي ولاريب ان الله أبقاها شاهدة لتفضيله تعالى نسل اسحق ويعقوب على العالمين بما قد أولاهم وخصهم من النبوة والكتاب ومن المعلوم ان الكتاب الموروث من الله تعالى لبني اسرائيل حسبما جاء في سورة المؤمن (آية ٥١) والمحفوظ منه على الدوام كما أعطي لهم يشتمل على ذلك الوعد الاسنى لكل من ابراهيم واسحق ويعقوب بدوره ان بنسلك تتبارك جميع قبائل الارض (راجع وجه ٧٢) وهذا لايصدق الا على المسيح فادي العالم نسل يعقوب المبارك الذي قد انبأت عنه انبياء الله واوسعوا في وصفه ومدحه كبركة الله للامم ونور للعالم وكلا الانجيل والقرآن على وفاق ان المسيح جاء بركة ورحمة للعالم. أما ما تقدم ذكره في الباب السادس الذي هو كحصن حصين شيد على ذلك الاساس هو البيان الجلي كون كلمة الله المبشر بها مريم هي ذات كائنة قبل حصولها في مريم وان هذه الذات التي هي من الله هي جوهر الهي حلّ في أحشاء مريم وتأنس منها

وهو علة كيان المسيح بدون أب وان ماجاء في القرآن من نسب المسيح وصفته ككلمة الله وروح منه ونوع ولادته الغريب واعماله العجيبة هي تلميح ذو شأن الى لاهوته العجيب . أما شراح القرآن المسلمون فقد أجمعوا على ابعاد عيسى عن حقيقة ذاته العجيبة المشار اليها في آياته والمعلنة في انجيل الله محاولين خفض سنا نسبه لتجريده من لاهوته الازلي بيد انه ليس من شأن العاقل الحر تقييد عقله بتأويل المأولين بل الجدير به استعمال بصيرته في فهم المعاني المؤدية اليها الالفاظ على الوجه الاقرب . وأنت ترى ان من هؤلاء المأولين من قرب جداً الى نقطة المعنى الصحيح ومنهم من بعد عنه ومنهم من كان بين بين حال كونهم في تأويلهم الآيات كانوا كأنهم يحومون حول غاية واحدة وما هي الا انزال المسيح كلمة الله وروحه منزلة بقية أنبيائه ومرسليه غير مراعين ما بتلك الآيات من امتيازاته النسبية وصفاته السنية التي طبعاً تخوله في ذهن العاقل المخلص مقاماً أسمى بما لا يقاس به مقام نبي أو مرسل سواه لانه من البعيد ان العاقل المدرك يرتوي بتأويلهم وهو يرى لعيسى مثل هذه الامتيازات العجيبة التي لم يحرزها سواه

فهل يجدر بتعقلك يا صاح بعد كل هذا البيان اغماض بصيرتك النيرة بعصابة الغرض حتى لا ترى من خلال هذه الآيات مجد ابن الله فان فعلت ذلك كنت لنفسك ظالماً ولله عاصياً

ثم لدى المقابلة ما بين آيات القرآن في هذا الباب وآيات الانجيل بخصوص المسيح يرى ولا بد نوعاً المصادقة والمواخاة اي ان القرآن يصادق على الانجيل في بعض خصائص المسيح وأوصافه مصادقة تكاد تكون حرفية ويواخيه في البعض الآخر مواخاة معنوية كما قد رأيت فيما مرّ أما مصادقته للانجيل من جهة المسيح فهي من حيث ولادته على خلاف العادة الطبيعية وعمله الآيات المعجزات كاحياء الميت وابراء الاكمه والابرص ووجاهته في الدارين . ومواخاته له فهي في نسبة المسيح لله وروح منه وهو يماثل نسبته في الانجيل لله ككلمة الله وابن الله فيرى كانّ الفرق واقع

في التعبير والتسمية لا في الحقيقة والمعنى وهي في المكانين عجيبة تريك رفعة شأن هذا المنسوب فوق كل مخلوق . وزد على ذلك ان القرآن والحديث زادا الانجيل في وصف جلال المسيح . أما القرآن فينبئ انه كلم الناس في المهد وانه كان يخلق من الطين طيراً والحديث يقول يوم ولد المسيح نكست أصنام الدنيا وانه ما ولد ولدٌ لآدم الاّ ونخسه الشيطان حين ولادته فيصرخ مستهلاً من نخسة الشيطان الاّ عيسى بن مريم وأمه وان ابليس خزاه الله حاول مساواته بباقي البشر من هذه الحيثية فارتد خاسئاً لان جيش ملائكة الله الحافّ ثمّ بالطفل المبارك لم يدعه يقرب منه (انظر كتاب احياء علوم الدين للامام الغزالي مجلد ٣ وجه ٣٧) فياذا النبرة الا ترى ان هذا الشخص الممتاز هكذا عن كل البشر بكذا امتيازات غريبة عجيبة هو لشخص عجيب والا تتخذ ذلك دليلاً على سموه على كل مخلوق . أيدور في خلدك ويروق لعينيك انه بدون داع موجب وسبب خطير صار هكذا خرق الناموس الطبيعي بولادته من دون أب أيأتي الله كذا أمراً عجيباً لا داعي له ولا سبب يوجبه كلا وحاشا . فما ذلك الداعي يا ترى . والقول مثله مثل آدم كلاهما من دون أب ليس هو بجواب لهذا السؤال فلا يروي غليلاً لخلوه من بيان السبب الموجب للعروج عن المجرى الطبيعي أما الانسان الاول فلا بد لكيانه من دون أب لكن المسيح أي سبب لكيانه بدون أب وأي ضرورة تدعو الى ذلك ألا يجول في خاطرك لدى تبصرك في هذه الآيات انه لا بد من علة كبرى لشذوذ ولادة المسيح عن السنة الطبيعية المسنونة من لدنه تعالى وان اقتران ولادته هذه العجيبة مع نسبه السني وتسميته تشف عن سر خطير في شخص عيسى المسيح ألا يتوق قلبك حقًّا للاطلاع على ذلك السر واذا تقت الى ذلك فاين تجد بيانه أفي القرآن . كلا . نعم ان القرآن أراك شيئاً نفيساً من مجد المسيح لكنه لم يسفر لك عن بهاء كماله ولا أدّاك حقيقة ذاته فكأنهُ بذلك أوصلك الى باب السر ولم يفتحه لك بل تركك هناك تعاني لظى التحسر والشوق فهل يحسن بتعقلك الرضى والقناعة بهذه النقطة الدالة على

ما وراءها من عظائم الامور . لو أخذ أحد الرواة يقص عليك قصة عجيبة وأوصلك بحديثه الى نقطة تشف عما وراءها من الغرائب وتوقف ثم عن الكلام هل كنت ترضى منه والا يسؤك ذلك وتلح عليه بتكملة القصة واذا قال لك اني لا أعرف منها أكثر مما قصصت عليك ألا تسأله عمن روى ذلك أو عن أي كتاب أخذ هذا الجزء وأين هو واذا سمى لك ذلك الكتاب ودلك على مكان وجوده ألا تسعى جهدك للوصول اليه والجد في احرازه ودراسته ولو كلفك ذلك خسارة ومشقة وهذا لعمرك عمل القرآن بخصوص عيسى المسيح فانه قص عليك من غرابته وصفته وعمله ما أخذ معظمه من الانجيل وقطع عنك الكلام في أهم نقطة أي لم ينبئك عن العلة والسبب لغرابة ولادته ولا عن سر نسبه واسمه وعجيب مقدرته وعلو منزلته فكانه أصعدك الى نصف البئر وأوقفك هناك بحيث لم يعد يصعدك ولا ينزلك غير انه لم يبخل عليك بالدلالة على الكتاب الذي منه أخذ ما أنبأك به وهو الانجيل الذي يريك تتمة القصة ويسفر لك عن سر ما روي في القرآن عن ولادة المسيح ونسبه وأهل الكتاب الذين أمر محمد بسؤالهم لا راحة فكره ومحو الشك من قلبه (انظر وجه ٧٥ و٧٦)

أيها الحبيب اذا كنت هكذا مؤمناً بانزال هذه الآيات وترى انك ملتزماً ان تنظر الى مرادها واستخلاص مفادها مع ما قد علمت حفظك الله من سلامة التوراة والانجيل اللذين غايتهما ومفادهما ابن الله المتأنس وفادي الخطاة بدمه . وانك ولا بد رأيت بين تلك الآيات ونص الكتاب وفاقاً من جهة المسيح أعظم كثيراً مما بينها وبين تأويل مأوليها المذكورين فما عليك يا ترى والحالة هذه . أن تقول حماك الله قول بعض البلداء المتغفلين الذين هربا من مقاربة النصرانية عند ما تشع لهم من شفافة مثل هذه الآيات أنوار ابن الله .. الله أعلم ما مراده بها .. فيتلونها ولا يتدبرونها ظناً منهم انها مما لاسبيل لهم الى فهمها واستخراج دسم لبها كأنهم يتهمون المولى جل وعلا بوحي الى خلقه يستحيل عليهم فهمه او يحظر عليهم البحث في

مراده او انك تعتبر المسيح ارفع قدراً واسمى شأناً من المخلوقات طراً وانك ملتزم لامحالة ذمة وحرمة لله ان تبادر الى كتابه وتطالعه بالخشية والمهابة مع الابتهال والضراعة لتعلم العلم الصحيح عن شخص عيسى المسيح وبعد هل يصدق انك بعد تدبرك القرآن لايعرض لذهنك لدى التبصر في عظمة هذا الشخص المنفرد في نوع الولادة وغريب النسبة والصفة مايعرض لكل لبيب نبيه على سبيل السؤال التعجبي ان تقول من ياترى يكون هذا الشخص حتى وجب الحبل به من دون أب ولم يكن لابليس سبيل اليه. من يكون هذا المدعو في القرآن كلمة الله وروح منه وفي السنة روح الله (الامام الغزالي جزء ٢ وجه ٣٥٩ وجزء ثالث وجه ١٢٦) واي شيء ليت شعري أعظم من روح الله. من يكون هذا الناطق في المهد. من يكون هذا المقتدر على احياء الاموات والقلوب حسب تأويل البيضاوي (مجلد اول وجه ٣١٩) (يعني الاجساد والارواح) ومن يستطيع ذلك سوى ربك القدير او روحه القدوس من يكون هذا الخالق حياً من جامد (طيراً من طين) أليس ذلك عمل الله في خلق آدم من يكون هذا الذي لم يذكر له عيب ولا اثم وليس له في القرآن استغفار ما ولا ان الله تاب عليه او غفر له كما ذكر عما سواه من مشاهير الانبياء. من يكون هذا الذي لم يستطع الموت ان يضبطه ولم يكن للفساد سبيل اليه بل قام على قول ابن وهب بعد توفيه بثلاث ساعات وعلى قول محمد ابن اسحق بعد توفيه بسبع ساعات ورفع الى الله بنفسه وجسده (انظر وجه ١١٦) من يكون هذا الذي سوف يأتي أيضاً ويقتل الدجال ويهلك بدعائه جيوش آجوج وماجوج (انظر حديث مسلم جزء خامس وجه ٤١٤ — ٤١٧) من يكون هذا الذي لم يحفل بالدنيا بل عاش عزباً وكان آية العفاف والطهر ولم يقاوم الشر بل عاش محسنا صفوحاً خيراً موصياً بحب الاعداء وبالاحسان للمسيء وبدعاء الخير للمضطهد الباغي وبابداء الخير والمعروف للعموم اشرارا وصالحين ألا انه فوق البشر جنساً ورتبة أغرب ما ظهر وأعجب ما بدا من البشر. مَن من الانبياء اجتمعت فيه هذه الصفات وامتاز بهذه النسبة او ظهر على

هذه الكيفية اونهج هذا المنهج.لا أحد.فهل هومن مقتضيات العقل اعتباره بعدكل هذه الامور مجرد انسان اوكاحد الانبياء والمرسلين .كلا. أالله يرفعه وأنت تخفضه ايدعوه كلمته وابنه ﴿ وحسب القرآن وروحه ﴾ ويدل على سناءهذا النسبة والمنسوب بما اولاه من قدرة الخلق وأحياء الاجساد والقلوب وأنت تنزله منزلة عبد مرسل الا ان ذلك مقاومة لوحي الله وتنزيله وما جزاء من يقاوم الله

ثم أرجوك ان ترد طرفك قليلا الى فاتحة قرآنك وأنعم النظر أنعم الله بالك في القول « واهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » وابحث عقلاً ونقلاً في مراد هذا النص فبموجب البحث العقلي الحر ترى ولا بد ان الصراط المطلوب الهداية اليه هو سبيل عبيد الله الاولين من انبياءه واوليائه الذين أنعم الله به عليهم سبيل الايمان بالله جرثومة كل صلاح وتقوى . ومن المعلوم المقرر ان بعض هؤلاء كان قبل بني اسرائيل كنوح وابراهيم واسحق ويعقوب وأكثرهم من بني اسرائيل الذين أعطاهم الله كتابه وان شئت فقل صراطه او سبيله وهو يوافق الآية « يابني اسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم واني فضلتكم على العالمين » ﴿ سورة البقرة آية ٤٤ ﴾ كيف لا وقد أعطاهم كتابه وكثر منهم الانبياء حتى أقام منهم سيد الانبياء والمرسلين مسيح الله كلمته وابنه الوحيد ﴿ وحسب القرآن وروح منه ﴾

اما بموجب البحث النقلي فانك تجد في المجلد الاول للامام الفخر الرازي تأويلا متنوعاً لهذا النص من عدة مصادر قال ان لتأويل هذه الآية وجوهاً ﴿ نأتي ببعضها على سبيل الايجاز ﴾ ﴿ الوجه الاول ﴾ ان الصراط المستقيم هو تحمل المشاق العظيمة لاجل مرضاته تعالى ويعضد ذلك بحكاية عن نوح انه كان يضرب في كل يوم كذا مرات بحيث يخشى عليه وكان يقول في كل مرة اللهم اهد قومي ﴿ الوجه الثاني ﴾ هوالمعدل في الامور اوالخط المتوسط بين الافراط والتفريط في كل الاخلاق وفي كل الاعمال ﴿ الوجه الثالث ﴾

معناه في اهدنا الصراط المستقيم عرفنا يا الهنا ما في كل شيء من كيفية دلالته على ذاتك وصفاتك (الوجه الرابع) اهدنا صراط من أنعمت عليهم من المتقدمين المحقين المحسنين للجنة ... وهم الانبياء والصالحون وان نعمة الله على اولئك هي نعمة الايمان فرجح حاصل القول في قوله اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم انه طلب نعمة الايمان اه . فحاصل ماتقدم ان محمداً أمر بطلب الهداية الى ايمان وسيرة المتقدمين من انبياء الله واتقيائه ومن المعلوم ان اصول ايمان اولئك القدماء المنعم عليهم من الله هي مدونة في اسفار الكتاب المقدس المنسوبة اليهم كاسفار موسى وصموئيل وداود واشعياء وارميا وغيرهم من رجال العهد القديم واسفار الانجيل فقد تبين اذا بجلاء من كلا البحثين في مراد الآية المذكورة ان الصراط المستقيم الذي أمر محمد وتابعوه بطلب الهداية اليه هو الكتاب المقدس صراط الذين أنعم الله عليهم من الانبياء والابرار السالفين وهو يوافق تماماً نص الآية . ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بني اسرائيل الكتاب هدىً وذكرى لاولي الالباب (والآية) ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على الذي أحسن وتفصيلا لكل شيء وهدى ورحمة لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون (الانعام آية ١٥٣) وهنا أسألك أزال هذا الصراط صراط الانبياء السالفين أم هو باق فان كان قد زال فطلب الهداية الى ما قد زال عبث وان كان باقياً فأين هو أليس هو عند أهله اليهود والنصارى المأمور محمد بسؤالهم لازالة ريبه واي فرق بين القول وقل للذين أتوا الكتاب (آل عمران آية ١٨) أو بين الذين أوتوا الصراط لان الصراط في الآية يراد به حسبما تقدم معرفة الله أو الايمان به بحسب حق ذاته وصفاته وهو السبيل الى الله وجنته وهذا هو مضمون الكتاب الذي هو هدىً وذكرى لاولي الالباب فان كان هذا الصراط المستقيم كتاب العزيز الرحمن الذي أنزله على أنبيائه ومرسليه الاقدمين وأورثه لبني اسرائيل باقياً غير مثلوم كما قد تبين لك بالكفاية فيما تقدم في هذا الكتاب فما بالك تقتصر على طلب الهداية اليه دون أن تتخذه وتسير بموجبه أتطلب

يا جائع الخبز والخبز امامك ولا تتناوله أو تطلب النور للهدى والنور لديك ولا تسير به وهل من العقل طلب المرء الهداية الى ما يظن انه في غنى عنه

وأخيراً أقول لقد رأيت أيها القاريء العزيز ان محمداً لم يأت بمعجزة تما برهاناً لدعواه انه نبي الله ورسوله وما كان يعد له معجزة وهو القرآن ظهر لدى البحث والتنقيب انه ليس بمعجزة وانه باعتبار دعواه كنبي الله ورسوله لم يرسل مكرهاً الناس الى الدين ولا مجازياً المعرضين عن قبول دعواه بطريقة تما بل فقط مبشراً ونذيراً عليه البلاغ وعلى الله الحساب وان مسألة الناسخ والمنسوخ حسبما دُوِّنَ في الباب الثالث هي غاية في التناقض والاشكال البعيد وقوعه عن الله والمنافية لحكم العقل السليم فيا أيها المسلم ألا ترى انه باعتبار الآيات القرآنية الواردة في هذه الابواب الثلاثة لا برهان لصحة دعوى محمد بالنبوة والرسالة على انه يرى ان الخطة التي سلكها باعتبار رئيس أمة هي خطة تشفُّ عن حذق غريب وذكاء مفرط لملائمتها الزمان والمكان وان ما ورد في الابواب الثلاثة الاخيرة هو من أمتن الشهادات وأحسنها لصحة الدين المسيحي المرسوم في كتاب الله هذا وانت تعلم ياعزيز اني لم أسلك في هذا التأليف مسلك التحيل المعيب المتسبب عن الغرض الجنسي وحب الانتصار وبقدر امكاني تجنبت الغلو في الكلام ولم يكن قصدي في باديء الامر سوى الوقوف على آراء علماء الاسلام الاولين من جهة مراد مثل هذه الآيات التي كنت أتأمل فيها زماناً باوفر اندهاش وحيرة ولما ان رأيت ان جل تلك الآراء يوافق صراحة تلك الآيات ومفادها البديهي اعتمدت على ضمها وترتيبها مع خلاصة تأويلها وملاحظات عليها كما قد رأيت في هذا المؤلف بحيث يستطيع المسلم وغير المسلم ان يقف بأوفر سهولة وأخصر وقت على أهم قضايا القرآن المتعلقة بالكتاب (التوراة والانجيل) والدين المسيحي

واني اعتقد اني في تأليفي هذه القضايا المهمة على هذا الاسلوب قد خدمت أهل الاخلاص والتقى من المسلمين أحسن خدمة تمكن لمثلي ومن المعلوم ان

أحسن الادوية النافعة لاعادة الصحة قد تنبذو تطرح من ذوي الجهالة حال كونهم باشد الحاجة اليها على ان أهل الذكاء والنباله يقدرون الشيء حق قدره ناظرين الى مايقال لا الى من قال فاسأله تعالى ان يجعل هذا الكتاب موضوع تأمل ذوي التعقل ووسيلة التنبه الى ماهو حق وصالح لعباده وان يعمهم بهداه ورشاده له الحمد والاكرام الآن وعلى الدوام آمين

فهرس الكتاب

صفحة

الباب الاول في الآيات المبينة ان محمداً ما أرسل بالآيات المعجزات وانه لم يأت بآية او أعجوبة ٣

الباب الثاني في الآيات المبينة ان محمداً لم يرسل لاجبار الناس واكراههم على الايمان ٢١

الباب الثالث في الناسخ والمنسوخ في القرآن ٤٠

الباب الرابع في الآيات المبينة ان الكتاب التوراة والانجيل لم يعتره تغيير ولا تحريف لفظي ٥٦

الباب الخامس في الآيات الدالة على ان النبوة والكتاب خاصان ببني اسرائيل ٧٨

الباب السادس في الآيات اللاحة الى لاهوت المسيح ١٠٠

الخاتمة ١٢٦

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE
CU10657380